ميخائيل نعيمه

في مهب الريح

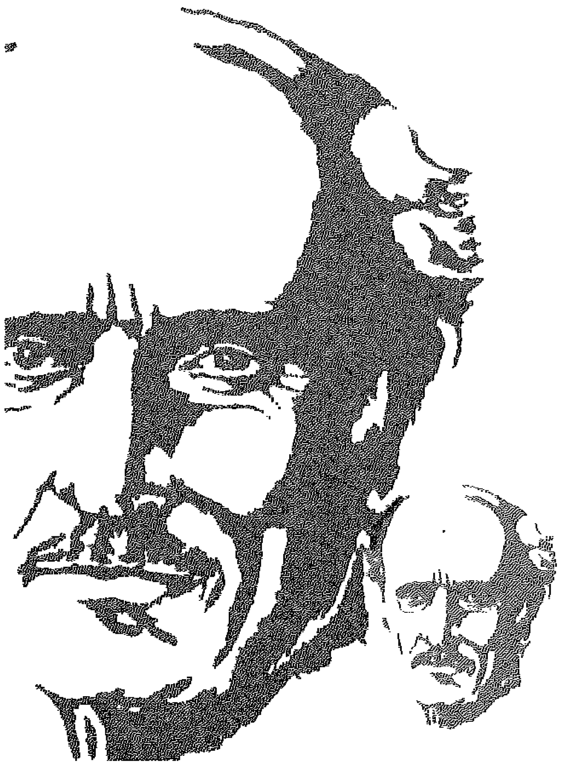

Bibliotheca Alexandrina
0121542

مؤسسة نوفل

في مهبّ الرّيح

ميخائيل نعيمة

في مهب الريح

مؤسسة نوفل ش.م.م
بيروت . لبنان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الثامنة

١٩٨٩

© مؤسسة نوفل ش.م.م

بناية نوفل، شارع المعماري
تلفون ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤، تلكس ٢٢١٠ نوفل
ص.ب ١١/٢١٦١، بيروت، لبنان

في مهبِّ الرِّيح

من التشابيه المألوفة حتى الابتذال تشبيهنا الشيء بالرِّيشة إذا هو بالغ في خفَّة الوزن . ثمَّ تشبيهنا ما ليس على شيء من الاستقرار بريشة في مهبِّ الرِّيح . وإني لأستعين بالتشبيه الأخير لأنقل إلى أذهانكم صورة العالم كما يتراءى لي في هذه الأيَّام . فهو في نظري ريشة – وأخفّ من ريشة – في مهبِّ الزعازع الهوج التي تجتاحه من كلِّ فجٍّ وصوب .

ما عرفَت البشريَّةُ على مدى تاريخها الطويل فترةً من الارتباك ، والقلق ، والذعر ، وتشرّد القلب والذهن كالفترة التي تتخبَّط في دياجيرها اليوم . ولا هي شعرت يوماً بأسس كيانها تتشقَّق وتميد إلى حدٍّ ما تشعر اليوم . ولا هامت على وجهها تفتِّش عن مخارج من مآزقها فلا تجد إلاَّ مآزق تفضي بها إلى مآزق حتى ليخيَّل إلى من يرقب حركاتها وسكناتها ويصغي إلى ضجيجها وعجيجها أنها فقدت رشدها ، وأفلت زمامها من يدها ، فما تدري أنَّى تتَّجه وبمن أو بماذا تستغيث .

لن أعطيكم مثالاً على ذلك ما تشهدونه من صراع دامٍ

وغير دامٍ بين مذاهب العالم من سياسيّة واجتماعيّة ودينيّة وسواها . وأعطيكم مثالاً هذه السيول الجارفة من الدعاوة للسلم والحرب في آنٍ معاً . فمن على منبر تلك المؤسّسة الضخمة المفكّكة الأوصال التي لقّبوها تهكّماً بـ « الأمم المتحدة » — من فوق ذلك المنبر وحده تنهلّ شلالات ، ولا شلاّلات نياغرا ، من الخطب الرنّانة . وكلّها يمجّد السلم ويدعو أمم الأرض إلى التمسّك به . ناهيكم بما يفيض من منابر المعابد والمدارس ، ومن حقول الصحف ، ومن أفواه المذيعين ، ومن شفاه رؤساء الدول ووزرائهم . حتّى لكأنّ العالم يوشك أن يدخل ذلك الفردوس الذي وعدت به الأديان معشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات . فلا حروب في الأرض بعد اليوم ، ولا عداوات بين أسودها وأبيضها ، وأصفرها وأسمرها ، وبين حاكمها ومحكومها ، وجائعها ومتخمها ، وملحدها ومؤمنها . بل هنالك تساهل ، وتفاهم ، وأخوّة وتعاون ، وسلام لا يشوبه خصام .

إلاّ أنّكم ما تكادون تنتشون بأنغام السلم تعزفها لكم تلك الجوقة ليل نهار حتّى تنقلب نشوتكم قشعريرة إذ تسمعون تلك الجوقة بعينها تعزف لكم ألحان الحرب ، وبمثل الحماسة التي تعزف بها أنغام السّلم — بل أشدّ . فساسة العالم الذين ملأوا العالم تسبيحاً للسّلم هم هم الذين ملأوه تجديفاً عليه .

فقد هبّوا في كلّ مكان يحثّون الناس بالوعد والوعيد على الاستعداد للحرب . وإن أنتم سألتموهم بأيّة حيلة ، وبأيّ منطق يبرّرون التناقض الفاضح ما بين أقوالهم وأفعالهم ، فيبشّرون بالسّلم إذ هم يُعدّون عدّة الحرب ، أجابوكم بكلّ صفاقة وجهٍ أنّهم لا يروّجون للحرب حبّاً بالحرب بل حفاظاً على السّلم . وذلك يعني أنّهم يرهقون الناس بالضرائب ويبتزون منهم جناهم ، ويسوقونهم سوق الأنعام ليدرّبوهم على فنون التقتيل والتدمير ، ويطردون الرّاحة والهناءة والأمل من قلوبهم وأفكارهم ومساكنهم باذرين مكانها الخوف والشكّ والقلق ، ويبنون الأساطيل البحريّة والجويّة ، ويكدّسون القذائف الجهنّميّة لا لينتهكوا بها حرمة السّلم بل ليقيموا منها سدّاً منيعاً بين الحرب والسّلم . وبعبارة أخرى ، إنّهم يهوّلون على الحرب بأحبّ الأشياء إلى قلب الحرب — بالمدفع والقنبلة والدبّابة ، وغيرها من وسائل التخريب التي هي خبز الحرب ولحمها ودمها وعضلها . إنّهم يهوّلون على الذئب بجماعة من الحملان ، وعلى الهرّ برهط من الفئران !

لعمري إن في ذلك لمنتهى الاستهتار بالعقل والمنطق ، ومنتهى الاستخفاف بالناس وآمالهم وأقداسهم . فهل من يصدّق أن المدفع الذي ما وُجد إلاّ لتمزيق السّلم وازدراده

يصلح أن يكون حارساً للسّلم ؟ أم هل من يصدّق أن السّلم يقتات ويحيا بالقذائف الجهنّميّة المكدّسة في مستودعات الدول ، والحرب التي ابتدعتها ما حَشَتها بغير السمّ الزّعاف للسّلم ؟ قد تكون الزرافة في عرين الأسد ، والشاة في وجار الذئب ، والفأرة بين براثن الهرّ أوفر أمناً على حياتها من السّلم في فوهة المدفع ، وفي جوف الدبّابة ، أو في قلب القذيفة الذرّيّة . وقد يصلح إبليس قيّماً على الجنّة قبل أن تصلح الحرب قيّمة على السّلم .

مررت ذات يوم بجماعة من الصبية يلعبون في ظلّ شجرة باسقة . فوجدتهم في هرج ومرج عظيمين . ووجدت أحدهم في أعلى الشجرة وقد راح يشدّ حبلاً إلى جذع من جذوعها . ووجدت الذين على الأرض قد أخذوا بطرف الحبل الآخر وانبروا يتسابقون إلى إحكام ربطه حول عنق هرّة رقطاء . وسمعت الذي في أعلى الشجرة يصيح بالذين على الأرض : « شدّوا ! شدّوا ! » وعندما سألتهم عن الجريمة النكراء التي اقترفتها تلك الهرّة المسكينة فاستحقّت من أجلها الشنق ، أجابني أصغرهم بمنتهى الجدّ والبساطة : « هيدي مرجوحة ! » عندئذٍ أدركت كيف تعبث الدعاوات الخبيثة بالمفاهيم البشريّة فتغدو المشانق أراجيح في لغة السياسة . ويصبح الاستعداد للحرب خير ضمان للسّلم .

لست أرى عظيم فرق بين ذهنيّة أولئك الصبية وذهنيّة ساسة العالم وقادته . فهم في تسابقهم الجنوني إلى التسلّح يحكمون الخناق على السّلم يوماً بعد يوم ثمّ لا يخجلون من أن يجاهروا بأنّهم يفعلون ما يفعلون لا في سبيل الحرب ، بل في سبيل السّلم والترفيه عنه والحفاظ عليه . وقد جرّهم هذا المنطق الأعوج إلى آخر أشدّ اعوجاجاً منه . إذ خلقوا خرُافةً أطلقوا عليها اسماً غرّاراً عليه مسحة من المنطق . أمّا ذلك الاسم فهو « توازن القوى » . ومعناه أن معسكرين متخاصمين ، إذا توازنت قواهما الحربيّة ، بات كلاهما يرهب خصمه فلا يجرؤ على مهاجمته . وهكذا يبقى السّلم بينهما في مأمن من الحرب . وإذ ذاك فعلى سكّان الأرض ، إذا هم شاؤوا سلماً دائماً ، أن يحفظوا التوازن في قواهم الحربيّة إلى الأبد . وفي ذلك من التضليل ما فيه .

لو فرضنا أن في استطاعة البشر حفظ مثل ذلك التوازن إلى الأبد لكان السّلم النّاتج عنه أشدّ هولاً على الناس من الحرب . فأيّة دولة تستطيع أن تمضي في التّسلّح عاماً بعد عام وعينها الواحدة على جارتها مخافة أن تسبقها خُطوة ، وعينها الأخرى على خزينتها الّتي تنضب يوماً بعد يوم ، وعلى شعبها الذي أرهقته الضرائب فبات يمشي حثيثاً إلى الفقر فالجوع فالفناء ؟ هذا إذا تيسّر للناس أن يقيموا مثل ذلك

التوازن . إلاّ أنّه في الواقع توازن مستحيل لا وجود له البتة إلاّ في أوهام القائلين به والدّاعين إليه .

إنّا إذا وضعنا كميّة من الشعير في كفّة من الميزان ووضعنا كميّة مثلها في الكفّة الأخرى استطعنا بأخذنا منها أو الإضافة إليها أن نحصل على توازن تامّ بين الكفّتين ، وأيقنّا أنّ كمية الشعير في الواحدة تعادل الكميّة في الأخرى بغير زيادة أو نقصان . أمّا التوازن في القوى الماديّة والمعنويّة وفي ظروف الزمان والمكان بين معسكرين متخاصمين فمنذا الذي أوتي من العلم والحكمة ما يخوله البتّ في اللحظة التي فيها يتمّ ذلك التوازن ؟ وإذا تمّ التوازن — وذلك مستحيل — فأين الإنسان الذي يستطيع أن يتنبّأ بمدى استقراره ؟ فهو إن دام لحظة لن يدوم شهراً . إذ ان العوامل التي تساعد على هدمه لا تقع تحت حصر . وأكثرها لا سلطان للناس عليه . فمصادرها خفيّة ، والقوى التي تخلقها ثمّ تسوقها إلى الناس على غفلة منهم ما برحت بعيدة عن متناول الناس . فظهور زعيم جديد أو اختفاء زعيم قديم ، وانتشار مذهب دينيّ أو سياسيّ كان في مطاوي الغيب ، وسنة قحط أو سنة خصب ، ووباء أو زلزال ، واختراع جديد أو اكتشاف معدن مجهول ؛ وثورة هنا أو عصيان هناك — كلّ هذه من الأمور التي من شأنها أن تعبث بخرافة « توازن القوى » بين لحظة ولحظة . وإذ ذاك

فالتوازن الذي أرادوه حِصناً للسّلم يصبح شَرَكاً له وأيّ شرك .

إذا كان الزّاعمون أنّ السّلم لا يصان إلاّ بآلة الحرب ، وإلاّ بالتوازن بين آلة وآلة ، جادّين في ما يزعمون ، فإنّها الحماقة الخرقاء . وإذا كانوا — دفاعاً عن مصالح موهومة — يموّهون ويخاتلون في ما يزعمون ، فإنّها الجريمة النكراء . وهم سيكفّرون عنها بعذاب ولا عذاب جهنّم .

أما كان من الأولى بزعماء العالم وقوّاده ، إذا هم صفت نيّاتهم للسّلم ، أن يستعدّوا للسّلم قبل استعدادهم للحرب ؟ فللسّلم عُدّته كما أن للحرب عُدّتها. إن تكن عدّة الحرب مدافع وقنابل وإثارة أبشع ما في القلب البشري من عفن البغض والحقد والشهوات السود ، فعُدّةُ السّلم قوتٌ للجياع ، وكساء للعراة ، ومأوى للمشرّدين ، ودواء للمرضى ، وكرامة للمهانين ، وحرّيّة للمقيَّدين ، ومعرفة للجاهلين ، وانعتاق للمستثمَرين من المستثمِرين ، وغفران للمذنبين ، وعدل للمظلومين ، واعتراف باطني وعلني بقدسيّة الحياة البشريّة وتنزيهها عن الأثمان ، ثمّ اعتراف مماثل بأن الإنسان أخو الإنسان وعونه ونصيره أينما كان ومن أيّ جنس كان ، وبأن الأرض ميراث الجميع .

عدّة السّلم الصدق ، وعدّة الحرب الكذِب

عدّة السّلم الأمانة ، وعدّة الحرب الخيانة
عدّة السّلم الثّقة ، وعدّة الحرب الشكّ
عدّة السّلم التعاون ، وعدّة الحرب التنابذ
عدّة السّلم المحبّة ، وعدّة الحرب البغض
عدّة السّلم العطاء ، وعدّة الحرب النّهب
عدّة السّلم التعمير ، وعدّة الحرب التخريب
عدّة السّلم الإيمان بالإنسان ، وعدّة الحرب الكفر بالله وبالإنسان معاً .

عدّة السّلم الحياة ، وعدّة الحرب الموت .

لو أن الناس حاولوا أن يحصروا في الأرقام كلّ ما أنفقوه على عدّة الحرب في خلال العقود الثلاثة الأخيرة لا غير لضاقت بهم الأرقام ولتخدّرت من هولها عقولهم ، وانعقلت ألسنتهم وتعطّلت مفاهيمهم الحسابيّة . فما من أرقام تستطيع أن تؤدي إلى أذهاننا المقادير الهائلة من القوى الروحيّة والماديّة الّتي أنفقتها الإنسانيّة على الحربين العالميتين الأخيرتين بصرف النظر عن الحروب الثانويّة الّتي نتجت عنهما . فلا الدّيار الّتي دُمّرت ، ولا الأراضي الّتي عُقّمت ، ولا الأموال الّتي هُدرت ، ولا الأجساد الّتي شُوّهت ، ولا الأرواح الّتي أزهقت ، ولا العيال الّتي شُرّدت ، ولا الدّواجن الّتي أتلفت ، ولا خطوط المواصلات الّتي عُطّلت بقابلة لأيّ

حصر . فكيف بالقلوب التي أحرقها الحزن ، وبالمآقي التي قرّحها الدّمع ؟

وأنتم لو سألتم هذه الإنسانية بعينها ماذا الذي أنفقته في خلال العقود الثلاثة الأخيرة على عُدّة السّلم لكان جوابها هزّةً من كتف ، أو قلبةً من شفة ، أو شقلةً من حاجب . ذلك لأنّها ما أنفقت شيئاً على الإطلاق ، فهي تستغرب منكم مثل ذلك السؤال وتعدّه ضرباً من البلاهة . ولا غرو . فما سمعنا ، منذ أن قامت الدول في الأرض وراحت تنظّم أعمالها الداخليّة والخارجيّة فتخلق الوزارات للنهوض بتلك الأعمال — ما سمعنا بدولةٍ واحدةٍ أوجدت لها وزارة للسّلم . في حين أنّه ما من دولة على وجه الأرض — مهما صغر حجمها وشأنها بين الدول — إلاّ لها وزارة للحرب . والاعتمادات التي تخصّص لوزارات الحرب في كلّ مكان هي اليوم مضرب المثل في التضخّم والسخاء . حتّى إن الكثير من الشعوب يقتّر على نفسه في المأكل والمشرب وغيرهما من مقوّمات الحياة ليكفل لجيشه المزيد من الزاد والعتاد . أمّا السّلم فما سمعنا بعد بشعب جاع في سبيله ، أو بدولة فرضت على نفسها التقشّف لتتذوّق لذّة السّلم وبركاته .

قد ترشقونني بالغلوّ في الكلام فتقولون إن الدول لا تقوم بوزارات الحرب وحدها . فهنالك وزارات الصحّة والزراعة

والاقتصاد والمعارف والمواصلات وغيرها ، وغيرها ، وكلّها يهدُف إلى الأعمال العمرانيّة . فهي حَريّة بأن تُحسب من عدّة السّلم . ويا ليت الواقع كان مصداقاً لما تقولون . إلاّ أنّه ، على النقيض من ذلك ، يشهد بأن الحرب ما مشت يوماً في الأرض إلاّ جرّت في ركابها كلّ جهود النّاس . وكلّ أقداسهم . فهي التنّين الذي لا يشبع ، والبئر التي لا تمتلىء . حتّى الدين الذي كان من المفروض فيه أن يكون أقوى دِعامة للسّلم لا يلبث أن يحمل العلَم ، وينفخ في البوق ، ويدقّ الطبل ويمشي في الطليعة حالما تكشّر الحرب عن أنيابها للسّلم .

لعلّ الظاهرة الوحيدة التي تستحقّ أن تسجَّل لحساب السّلم هي الجوائز التي تُمنح من حين إلى حين باسم السّلم . ولكنّها ، إذا قيست بآلاف آلاف الملايين التي تُنفق في سبيل الحرب بَدت كنقطةٍ من الزيت في بحر من الزئبق ، أو كحمامةٍ منتوفة الريش بين سرب من الغربان ، أو كبنفسجة ذاوية في حقل من العوسج .

منذ أن أودى قابيل بحياة أخيه هابيل والسّلم شريد طريد في الأرض يطلب ملجأً فلا يجده ، والحرب سيّدة الأرض بغير منازع . تغفو فترة من الزمن ثمّ تستفيق وقد تضاعفت شراهتها للدم ومقدرتها على التخريب . فيحسب الناس غفوتها سلماً وما هي بالسّلم . إن هي إلاّ حشد جديد لقوى جديدة

وتحفّز لوثبة أشدّ هولاً من التي سبقتها . وهكذا راحت الحرب تفتّن في توزيع قواها ، وتنمية مواردها ، وتنظيم حركاتها على مدارِ العصور حتى بلغت ما يكاد يكون ذروة الكمال في هذا العصر . وهو الكمال الذي يجعل منّا ومن دنيانا ريشة في مهبّ الريح . إذ انّه ينذرنا ، إن لم يكن بالفناء التامّ ، فبالعودة إلى عالم الغاب ، ونظام الظفر والناب ، وبالتخلي عن بدائع حضارة خلقناها بكدّ الجفن والدّماغ ، وإرهاق العظم والعضل ، وشددناها بعضها إلى بعض بنياط القلب وأشواق الروح .

أجل . نحن اليوم ريشة في مهبّ الريح . وقد بات لزاماً علينا ، إذا نحن شئنا أن نسترد لأنفسنا شيئاً من الثبات ، إمّا أن نزيد في وزن الريشة ، وإمّا أن نخفّف من حدّة الريح . أو أن نجترح العجيبتين معاً . فهل من سبيل إلى ذلك ؟ ومنذا الذي سيدلّنا عليه ثمّ يدربنا على سلوكه ؟

من الأكيد أن الذين جعلوا منّا ريشة لن يستطيعوا أن يجعلوا من الريشة طوداً . والذين أطلقوا علينا الرياح الهوج لن يكون في وسعهم أن يجعلوا من تلك الرياح نُسَيمات بليلات . أولئك هم القابضون بأيدٍ من حديد على أزمّة حياتنا الجسديّة والعقليّة والقلبيّة . أوَتدرون مَن هم ؟ إنّهم أسياد الغرب الذي انتقلت إليه زعامة العالم منذ أيّام أثينا وروما فما تخلّى

عنها حتّى اليوم إلاّ في خلال فترات قصيرات .

لقد كان من حسنات زعامة الغرب في العالم أنّها أطلقت العقل البشري من عقالاته ، ثمّ أحسنت تدريبه وتنظيمه ، فاندفع بكلّ ما أوتيه من قوى هائلة يرود العوالم المحيطة به من فوق ومن أسفل ؛ يعالج طلاسمها ، ويفكّ ما استعصى من عُقدها ، ويُظهر ما خفي من مكنوناتها . وإذا بالأرض تتخلّى للإنسان عن كنوز كثيرة كانت دفينة في أحشائها ، وإذا بالسماء تبوح له بالكثير من أسرارها ، حتّى بات يعتقد أن سيادة الأرض والسماء توشك أن تصبح في قبضة يده .

لقد أبطرت الغربَ فتوحاتُه العقليّة ، وزادت في ثروته الماديّة مقادير لا تحصى ولا تُعَدّ ، وبسطت سلطانه على الأرض من القطب إلى القطب ومن المشرق إلى المغرب . فبات لا يشكّ قطّ في حقّه بتلك الثروة وذلك السلطان . ولكنّه ما لبث أن انقسم إلى معسكرين يتنازعان ثروة الأرض وسلطانها ويتستّران في نزاعهما باسم العدالة من جهة وباسم الحريّة من جهة أخرى . ثمّ يعمل كلاهما ليل نهار على كسب الأنصار والأمصار ، بالقوّة حيث تنفع القوّة ، وبالمال حيث لا يجدي إلاّ المال ، وبالدعاوات الطويلة والعريضة الّتي تنفذ إلى القلب والعقل حيث لا تنفذ القوّة ولا المال . أمّا إنتاج العتاد الحربي من كلّ أصنافه فيسير على قدم وساق ، بل على دولاب

وجناح . وأمّا تشييد الحصون ، وتدريب الجيوش ، وتصميم الخطط ، وتنظيم القيادات ، وعقد المحالفات ، وبثّ العيون ، وجسّ النبض ، وهزّ الأعصاب من حين إلى حين ، والتراشق بالوحول ، والتبجّح بالفضيلة ، والتغنّي بالسّلم – فهذه كلّها تجري في السرّ والعلانية ، وبغير انقطاع .

وتنجرف بهذا التيّار الهائل جميع دول الأرض ودويلاتها ، وفي جملتها دويلات شرقنا العربي . فتمضي تتمرّس بفنون النباح والنطاح ، والقدح والذم ، والتضليل والتدجيل ، والتغنّي بالحقّ ، والتبجّح بالقوّة . حتى إن بلداً صغيراً ووادعاً وجميلاً كلبنان لا يخجل من أن يعلن الملأ على رؤوس الأشهاد بأن سيفه والقلم « ملء عين الزمن » ، ولا هو يتورّع عن سنّ قانون يقضي على الطلاب في مدارسه بإنفاق ساعات في كلّ أسبوع على التدريب العسكري بدلاً من إنفاقها على تثقيف القلب والعقل ورفعهما عن مخازي الحروب وعبوديّة الحياة الجنديّة . وقد لا يتجهّم الجوّ العالمي حتى يعلن لبنان التجنيد الإجباري . أمّا في سبيل مَن أو ماذا يقدّم لبنان بنيه طعاماً للمدفع ووقوداً للنّار فعِلم ذلك عند الذين جعلوا من حمامة السّلم غذاقاً لا يلذّ له شيء مثلما يلذّ له نهش الجيف بمخالبه ومنقاره .

والذي أقوله في لبنان يصحّ قوله في سائر الدول العربيّة .

فما أدري بأيّ سحر سطت علينا أراجيف الغرب في دعاواته ومهاتراته حتى بتنا نعتقد أن قوّة الأمم في حناجرها . فلا نشبع من التحدّث عن تعشّقنا للاستقلال والحريّة ، وعن تفانينا في سبيل الكرامة القوميّة ، وعن الشهامة اليعربيّة ، والكبرياء الشرقية ، وعن أمجاد أسلافنا وجليل ما قدّموه من الأقوال والأعمال للحضارة البشريّة . لقد انجرف الجميع في تيّار هائل من التبجّح بالماضي ، كأنّ التبجّح بما كان يغيّر شيئاً في ما هو كائن . وكأن كسيحاً يستطيع أن يستغني عن عكّازه إذا هو ردّد على مسامع الناس بغير انقطاع أن أباه أو جدّه كان أمير الفوارس وسيّد الميدان .

لئن كانت لنا في حافظة الزمان السحيق صفحات مشرقات بالعدل والبطولة والنُّبل والإباء والإيمان بقدسيّة الحياة وجمال منبعها الإلهيّ ، فإنّ لنا بجانبها مجلّدات سوداً تنضح بالظلم والجبن والخساسة والذلّ والكفر بالحياة وربّ الحياة . فليس من الصدق ولا من الرجولة في شيء أن نذكر الصفحات وننسى المجلّدات . ونحن إذا فعلنا ذلك جنينا على أنفسنا وعلى بنينا وبني بنينا ، وكنّا كمن يستر عريه بثوب مستعار ، أو كمن يداوي الرمد بذرّ رماد في العين ، والسرطان بجرعة من الأفيون . فمن شأن تغنّينا بماضينا أن يصرف همّنا عن خزي فينا إلى مجدٍ ليس لنا .

إنّني رجل عربي ومن صميم الأرومة العربيّة . ولكنّني لست أرى في انتسابي إلى العرب ما يرفعني فوق غيري من الناس ولا ما يحطّني دون غيري من الناس . فلا شرف العرب يشرّفني إن كنت خسيساً . ولا خزيهم يخزيني إن كنت شريفاً . بل تشرّفني سيرتي وسريرتي ، وتخزيني أقوالي وأفعالي . وعليّ ، إذا أنا أخلصت الحبّ للعرب ، أن أشرّفهم بما أقول وأفعل بدلاً من أن أتشرّف بما قالوه وفعلوه .

إن صدري ، على رحابته ، ليضيق بقوم بعُدت الشقّة بين ألسنتهم وقلوبهم . فهم يقولون غير ما يشعرون ، ويشعرون غير ما يقولون . ثمّ يفعلون غير ما يقولون ويشعرون . فبينا ألسنتهم تنشد أعذب الشعر في الحريّة والكرامة الإنسانيّة تراهم مكّنوا في قلوبهم للذلّ والعبوديّة . فهم يزحفون على بطونهم ويعفّرون جباههم أمام ذي سلطان أو جاه أو مال ، وهم يتجبّرون على من دونهم ويتكبّرون . وذلك ، لعمري ، هو منتهى الذلّ والهوان . والذلّ والهوان متفشّيان اليوم في الجسم العربي تفشّي السرطان . وهو السرطان الذي لا تنجع في استئصاله تعاويذ الدعاوات ولا الثرثرة عن أمجاد السّلف .

وأيّ أمجاد السّلف يتغنّى به الخلف راجين أن يبعثوا بذلك همماً تراخت ، وأن يجمعوا كلمة تشتّتت ، وأن يرفعوا إلى فوق أبصاراً منكّسة إلى أسفل ؟ تلكم الأمجاد هي سيوف

خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وطارق بن زياد . هي الأعلام العربيّة التي خفقت في سالف الأزمان من حدود السند حتى حدود الغال . إنّها الرغوة التي أثارها العرب في اندفاعهم من قلب الجزيرة شمالاً وشرقاً وغرباً . ولكنّها ليست المعجزة التي جاء بها العرب . والتغنّي بها لا ينفع العرب ولا العالم في شيء . أمّا معجزة العرب الكبرى فهي القرآن . وهي وحدها التي تستطيع أن تجعل من العرب قوّةً أبن منها قوّة الأساطيل البحريّة والجويّة والقنابل الجهنّميّة ، وأين منها قوّة المال والرجال . فالأساطيل للصدإ ، والرجال للموت ، والمال للزوال . أمّا معجزة القرآن فللبقاء . ذلك لأنّها أقامت للعرب — ولغير العرب — هدفاً من حياتهم ، وكانوا بغير هدف ، واختطّت لهم طريقاً إلى الهدف ، وكانوا بغير طريق . وما اكتفت بأن أقامت لهم هدفاً واختطّت طريقاً ، بل إنّها برهنت لهم بحياة النبيّ وصحبه أن ذلك الهدف مُستطاع بلوغه على من سار في الطريق . فحياة النبيّ وخلفائه الأوّلين مليئة بالعِبَر التي تهدي الناس سواء السبيل فلا تتركهم ريشة في مهبّ الريح .

لو لم يترجم النبيّ وصحبه القرآن إلى أفعال لما كانت المعجزة معجزة . ولكنّهم ، وقد امتلأت قلوبهم وعقولهم إيماناً ، ما تردّدوا في ترجمة إيمانهم إلى أعمال وأقوال تتوافق كلّ

التوافق مع ذلك الإيمان . وإنّي لأذكر في ما أذكر من الأخبار النبويّة خبر شاةٍ ذبحها أهل البيت في غياب النبيّ وفرّقوها على المعوزين . وعندما عاد النبيّ أخبرته عائشة بما كان وأضافت أنّهم لم يُبقوا لأنفسهم من الشاة إلاّ الكتف . فكان جواب النبيّ لها : لقد بقيت كلّها إلاّ الكتف . إنّه لجواب حوى من البساطة والبلاغة والحكمة ما لم تحوِه مجلّدات من الفلسفة : بقيت كلّها إلاّ الكتف . ومعنى ذلك أنّنا نكسب ما نعطيه ونخسر ما نمسكه . فالذي ننفقه على الغير من أموالنا وقلوبنا وأفكارنا وأرواحنا يُحسب لنا . والذي ننفقه على أنفسنا يُحسب علينا . فنحن مطالَبون بسوانا قبل أن نطالب بأنفسنا . ونحن ، وكلّنا عيال على الله ، لا نستحقّ نعمة من نعم الله إلاّ إذا أبحناها من صميم القلب لغيرنا من عيال الله . فهل مَن يدلّني بعد ذلك على طريق إلى الإخاء والسّلم والتعاون بين الناس ، وبالتالي إلى الحريّة ، أقرب من هذا الطريق وأقوَم ؟

أجَل . إن معجزة العرب لفي القرآن . إلاّ أنّها أصبحت اليوم وكأنّها ليست بمعجزة . ذلك لكثرة ما ألِفتها الشفاه والآذان والعيون . ومن شأن الشفاه والآذان والعيون أنّها إذا ألِفَت عجيبة أغلقت دونها القلوب . وقلوب العرب غدت مغلقة دون معجزة العرب منذ أن حكّموا دنياهم في دينهم .

فهم اليوم يؤمنون بالراديو والرادار ، وبالدبّابة والطيّارة ، وبالدعاوات والمخرقات ، ثمّ بالفلس الذي يبتاع كلّ هذه – يؤمنون بها كما لو كانت المفاتيح إلى الراحة والهناء والسلام والحريّة والكرامة الإنسانيّة . أمّا المفتاح الذي أُعطي لهم في القرآن فجوهرة يتبرّكون بلثمها ، ويباهون بجمالها . ولكنّهم يتهرّبون من استعمالها . فكأنّها للزينة لا لفتح الأبواب المغلقة ، وفكّ المشاكل المستعصية ؛ أو كأنّها للتسلية والترفيه عن النفس عندما تملّ النفس العمل في معامل الفلس والدينار ، أو عندما يأخذها شيء من الكلل .

إن تكن هذه هي حال المسلمين مع القرآن فهي كذلك حال المسيحيّين مع الإنجيل ، وحال باقي المذاهب مع ما عندها من كتب دينيّة . فالمسيحيّون الذين عاشوا خلال ثلاثة قرون أقليّة متآخية . متضامنة على السرّاء والضرّاء . متمسّكة بالسّلم . منكرة على السيف أن يكون حَكَماً بين الناس ، ومضطهَدة لذلك من ذوي السلطان في الأرض . عادت في عهد الأمبراطور قسطنطين الكبير فباعت إنجيلها بصكّ يحميها من الاضطهاد ويضمن لها أن تصبح دين الدولة الرسميّ إذا هي أمرت تبّاعها بالقتال تحت راية الدولة . وبذلك تنازلت عن تعاليم مؤسّسها حيث يقول : أحبّوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى الذين يسيئون إليكم .

وهكذا مشى المسيحيّون في جيوش أكبر دولة مستعمِرة عرفها التاريخ القديم . فجعلوا من مسيحهم أمبراطوراً وهو القائل : « مملكتي ليست من هذا العالم . » ووضعوا على رأسه تاجاً وهو الذي ما تكلّل رأسه بغير الشوك . وأرهقوه بحطام الأرض وهو القائل : « للثعالب أوجار ، وللطيور أوكار ، أمّا ابن الإنسان فليس له أن يضع رأسه . » فباتوا منذ ذلك الحين ودِينهم دَيْنٌ في أعناقهم وشاهدٌ عليهم في الأرض وفي السماء . وباتوا لذلك ريشة في مهبّ الريح . وما المدنيّة التي شادوها ، على كلّ ما فيها من روعةٍ للعقل والعين والأذن ، بدافعة عنهم جزاء خيانتهم لمسيحهم ، وجزاء ما هدروه وما برحوا يهدرونه من دمع ودم .

الدين في عقيدتي هدف وطريق . أمّا الهدف فهو انعتاق الإنسان من ربقة الحيوان في أسافله والانطلاق به إلى الإله الكامن في أعاليه – إلى المعرفة التي لا يخفاها شيء ، والقدرة التي لا تعصيها قدرة ، والحياة التي لا يطالها موت . وأمّا الطريق فهو ترويض العقل والقلب ترويضاً لا فتور فيه ولا انقطاع على ممارسة الفضيلة والإقلاع عن الرذيلة . وأمّا الفضيلة ما هي والرذيلة ما هي فوجدان الإنسان كفيل بالتمييز بينهما . ولا يُطالَب أحدٌ بخيرٍ أو يُدان بشرّ إلاّ على قدر ما يميّز وجدانه الخير من الشرّ .

ذلك لا يعني الزهد في الدنيا والانقطاع عن التلذّذ بمفاتنها وخيراتها البريئة . فقد وقعتُ مرّة على خطاب يُعزى إلى عيسى . ولعلّه أقصر خطاب وأبلغ خطاب في موضوع الدين والدنيا إذ قال للدنيا : «مَن خدمني فاخدميه . ومَن خدمَكِ فاستخدميه . » وهو يعني أنّ من استخدم الدنيا لخدمة الحقّ أبيح له كلّ ما في الدنيا . ومن خدم الدنيا لا لأجل الحقّ بل طمعاً بما فيها من ملذّات أصبح عبداً ذليلاً لها وظلّ بعيداً عن حريّة الحقّ .

أعيد القول : إنّ للدين هدفاً وطريقاً . ولذلك كان الدين بجوهره لا بطقوسه وتقاليده أقوى من ظروف المكان وأبقى من تقلّبات الزمان . أمّا العالم الدنيوي بشعوبه وممالكه وغاياته المتضاربة ، ونزعاته المتشاكسة ، فلا يوحّده هدف ولا يجمعه طريق . لذلك يبقى عرضة للقلاقل والحروب وريشة في مهبّ الريح . والدين — كلّ دينٍ — ما انطلقت أنواره في العالم إلاّ من الشرق . أفلا قلتم معي :

واهاً لهذا الشرق ما أضعف ذاكرته وأوهن قلبه ! فسرعان ما نسي ميراثه ، وسرعان ما تخلّى عن سلاحه الذي لا يُفَلّ ليستبدل به سلاحاً يتأكّله الصدأ . وكم كنت أتمنّى لو يسترد ميراثه وسلاحه لعلّه يستطيع أن يردّ العالم إلى رشده بدلاً من أن يفقد هو الآخر رشده في عالم جنّ جنونه .

لئن أحسن الغرب توجيه العقل البشريّ وتدريبه وتنظيمه حتّى بلغ به ما بلغ من بعيد الشأو في دنيا الصناعات والعلوم والفنون فقد أهمل القلبَ كلّ الإهمال ؛ والقلب هو مهبّ العواصف التي تعبث بنتاج العقل ، ومصدر السموم التي تُفسد على الناس الاستمتاع بذلك النتاج . وهو ، على ضآلة حجمه ، ذلك العالم الشاسع الذي يلاصق فيه الإنسان الحيوان من جهة ، ويعانق الله من الأخرى . وحتّى اليوم ما تمكّن أحدٌ من سبر أغواره السحيقة وتسلّق أعاليه الربّانيّة غير نفر قليل من الناس أنجبهم هذا الشرق هُداةً للبشريّة وقادةً لخطاها من الحيوان القابع في أغوارها إلى الإله المتألّق في أعاليها . أولئك هم أنبياء الشرق الذين مرّوا بالأرض مرور الشهب في الفضاء ، ومرور البرق في مطاوي الظلمات . فرسموا للناس طريق الخلاص بخطوط من نور . ومضوا وكأنّهم يقولون للناس : « ذلكم هو طريق الخلاص ولا طريق لكم إلاّه . إن سلكتموه نجوتم . وإن لم تسلكوه فلومكم على أنفسكم . ونحن دائماً أبداً بجانب الذين يسلكونه . نمدّهم من قوّتنا . ونسندهم بأفئدتنا . ونصدّ عنهم هجمات الوحوش وغارات اللّصوص ما داموا مثابرين على السير ، وما دامت عيونهم على الهدف البعيد . »

لقد أدرك أنبياء الشرق أنّ من بين الشهوات التي يكتظ

بها القلب ولا اكتظاظ الرُّمّانة بالحبّ شهوةً هي بمثابة الشراع للمركب ، والمنارة للملاّح ، والدليل للأعمى . وأنّ هذه الشهوة – وسأدعوها « الشهوة الغلاّبة » – إذا انصاع لها الإنسان بكلّ شهواته كان من شأنها أن تبلغ به في النهاية المرتبة المعدّة له منذ الأزل واللائقة بأسمى ما فيه من ملكات ونزعات وأشواق . ألا وهي شهوة الحياة والحريّة . فنحن قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء نريد أن نحيا ، وأن نحيا طليقين من كلّ قيد وحدّ إلاّ من القيود والحدود التي نفرضها على أنفسنا وبملء إرادتنا لنستعين بها على بلوغ الحياة التي لا تموت والحريّة التي لا تُحَدّ .

أجَل . إنّا نريد الحياة – نريدها بكلّ جارحة من جوارحنا ، وكلّ نبض من أنباضنا ، وكلّ نفَس من أنفاسنا ، وكلّ حركة أو سكنة من حركاتنا وسكناتنا . ولذلك نأكل ونشرب ونتناسل . ولذلك نفكّر ونتخيّل ونعمل . ولذلك نحلمُ أحلاماً ونبصر رؤى ونغالب الأرض والسماء لعلّنا نمدّ في حياتنا إلى ما لا نهاية له . إلاّ أنّنا نتبرّم بكلّ ما يحدّ من حرّيتنا في الحياة . حتى ليرهقنا أن نكون في حاجة إلى الأكل والشرب واللّباس والمأوى ، ونتمنّى لو تصبح حياتنا في غنى عن كلّ ذلك . فلا نَنيي نحتال على كلّ عقبة في طريقنا ، ولا ننفكّ نختصر المسافات ، ونسهّل المعقّد من سبل المعيشة ،

كيما يتاح لنا أن نستمتع بحياتنا حرّة إلى أقصى حدّ . ولأن مثل هذه الحياة يبدو بعيد المنال على الأرض لذلك ترون الأنبياء قد وعدوا بها الناس في غير هذا الزمان وعلى غير هذه الأرض . وسواء بلغنا تلك الحياة في هذا العالم أم في سواه فالمهمّ أن أنبياء الشرق قد أجمعوا على القول بأن في مستطاعنا بلوغها وعلى اعتبار شهوة الحياة الأبديّة والحريّة الكاملة الشهوة الأولى والأقوى من جميع شهوات القلب البشريّ . فهي الشهوة التي لا تعانَد ولا تُقْهَر ، والتي يتوجّب علينا أن نجعل من جميع شهواتنا خَدَماً لها وحشماً كيما نستطيع تحقيقها في النهاية . ولن يستطيع تحقيقها إلاّ الصالحون . ولذلك جعلها الأنبياء بمثابة الثواب الأكبر للمعيشة الصالحة .

فما هو الصلاح الذي إن نحن سلكنا سبيله وتمسّكنا بأهدابه بلغنا الحياة التي لا يطالها موت والحريّة التي لا يحدّ من مداها حدّ ؟

ذلكم الصلاح هو تحكيمكم شهوات القلب البيض في شهواته السود . وذلك يعني جعلكم الإنسان فيكم سيّد الحيوان . حتّى إذا انعتق الإنسان من عبوديّة الحيوان انطلق من بعد ذلك إلى حريّة عدن حيث يتضوّع دائماً أبداً شذا الألوهة العارفة كلّ شيء والقادرة على كلّ شيء . وتحكيمكم الإنسانَ في الحيوان لا يتمّ إلاّ بترويض القلب على كبح جماح

أهوائه التي من شأنها أن تعرقل الشهوة الغلاّبة في انطلاقها نحو الحياة والحريّة . كأن نقهروا الغضب بالتسامح ، والطمع بالقناعة ، والكبرياء بالوداعة ، والشهوة الحيوانيّة بالعفّة ، وحبّ الثأر بالصفح ، والخشونة باللّين ، والقوّة بالعدل ، والرياء بالصدق ، وسوء الظنّ بحسن الظنّ ، والنفور بالعطف ، والخوف بالشجاعة ، والشكّ بالإيمان ، والكره بالمحبّة ، إلى آخر ما في القلب البشريّ من سود الشهوات وبيضها .

إنّ عظمة أنبياء الشرق ما كانت بذات بال لو أنّها انحصرت في القول دون الفعل . إلاّ أنّها تجاوزت النصح إلى العمل به . فالأنبياء ما دلّونا على طريق الحياة والحريّة إلاّ من بعد أن سلكوه بأنفسهم واستوثقوا من الغاية التي ينتهي إليها . وقد حذا حذوهم نفر من الذين لاصقوهم بأرواحهم وأجسادهم فتلقّحوا بإيمانهم ، والتهبوا بحماستهم ، وتذوّقوا مثلهم حلاوة السّلم والحياة والحريّة . فكانوا لنا الحجّة القاطعة والدليل السّاطع على صحّة ما تلقّنوه من معلّميهم وعلى مقدرتنا — ونحن بشر أمثالهم — أن نسلك السراط الذي سلكوا ، وأن نبلغ الهدف الذي بلغوا .

هذا هو طريق الحياة والحريّة — وبالتالي طريق السّلم — الذي اختطّه لنا معلّمو الشرق وصحابتهم وحواريّوهم منذ أجيال وأجيال . وذلك من بعد أن سبروا أغوار القلب البشريّ ،

وكشفوا دفائنه ، وتفهّموا سائر شهواته وعلى الأخص الشهوة الغلاّبة . وكلّ طريق عداه يؤدّي حتماً إلى الموت فالعبوديّة فالحرب . وأنا إذ أجاهر بهذا القول أعلم حقّ العلم أنّني أجعل من نفسي هدفاً للكثير من الناس . وكلّهم يتهمني بالرجعيّة قائلاً : «إن هذا الرجل يريد أن يعود بنا القهقرى إلى سلطان الدين ورجاله . والدين ورجال الدين هم الذين جنوا على الشرق فبات في مؤخرة ركب الحضارة وكان جديراً به أن يسير في المقدّمة . وبات لقمة سائغة يتسابق إلى ازدرادها أقوياء الأرض ، وكان حريّاً بأن يكون من القوّة بحيث يأخذ الأفضل والأشهى من سمن الأرض وشهدها فلا يأكل الغير إلاّ فضلته . »

أولئك هم الذين ما فهموا من الدين إلاّ قشوره . واللّوم في ذلك ليس كلّه عليهم . بل هو في الدرجة الأولى على رجال الدين الذين جعلوا منه سلسلة طقوس وتقاليد قد تدغدغ العين والأذن إلاّ أنّها تترك القلب بارداً والفكر شارداً والروح في عطش ممضّ وجوع قتّال . أما أنا فلا أرضى من الدين بغير لبّه . ولبّ الدين هو النهوض بالإنسان من مستوى البهيمة إلى مستوى الألوهة . ولست أعرف من كلّ الطرق التي يسلكها الناس طريقاً يؤدي بهم من الحيوان إلى الله غير الطريق الذي اختطّه لهم معلّمو هذا الشرق .

إنّ سالك ذلك الطريق ليشعر بأنّه أقوى من الزعازع والزلازل . وأبقى من الزمان والمكان . وهو المحارب الذي لا ينام على الضيم ولا تُفَلّ له عزيمة . أمّا أعداؤه فليسوا من لحم ودم . إنّهم الشهوات السود التي في قلبه . وهم أوسع حيلة ، وأشدّ بطشاً ، وأثبت قدماً في الميدان من أيّما عدوّ آخر . وهو لاهٍ بمصارعتهم عن مصارعة جيرانه وإخوانه في النّاسوت وأعوانه في حربه الضروس ضدّ نفسه . فلا يستخفّه الطيش والحمق إلى حدّ أن ينصرف عن حرب أعداء في داخله إلى حرب أعداء في خارجه . ولذلك كان في مستطاعه أن يعيش مع الناس في سلام . فهو ، إذ يسعى إلى الحياة والحريّة ، لا يعتمد في الدفاع عنهما على سلاح من الحديد والنار . لأنّه يعلم أن الحديد يفلّه الحديد ، والنار تأكلها النار . ولكنّه يتسلّح بالإيمان الذي هو أقوى من النار وأمضى من الحديد بما لا يقاس . ومن كان ذلك شأنه من حياته كان ثابتاً في الزمان والمكان ثبوت الحياة .

أمّا الذين يفتّشون عن حياتهم وحريّتهم في سلب غيرهم الحياة والحريّة ، وعن سلمهم في شنّ حروب لا نهاية لها على سواهم ، فمقضيّ عليهم بأن يبقوا ريشةً في مهبّ الريح . إذ انّهم كما يَسلبون يُسلبون ، وكما يحارِبون يحارَبون . وهم أبداً ينتهون حيث يبتدون ، ويدورون في حلْقةٍ مفرغةٍ

ولا يعلمون .

هي أمنيّة طويت عليها جوارحي منذ أن انفتح قلبي للنور . وهي أن ينفض الشرق عنه خبال الأجيال ، ويفلت من شباك الدعاوات الخسيسة والمهاترات السخيفة التي تبثّ سمومها في الأرض بغير انقطاع ، ومن الطقوس الجافة والتقاليد البالية ، ويعودَ فيرفع مشعل الهداية في العالم ، ويسلك به الطريق المؤدّي من الموت إلى الحياة ، ومن العبوديّة إلى الحريّة ، ومن الحرب إلى السّلم ، ومن فاقة الأرض إلى بحبوحة السماء .

السيف والقصبة

أفاق الملك العادل من نومه نحو الساعة الثانية بعد منتصف اللّيل ، واستوى جالساً في سريره ، ثم راح يفرك عينيه بيديه محاولاً أن يطرد من خلف أجفانهما أشباح حلم مزعج . ولمّا أعياه الأمر نادى بحارسه اللّيلي الواقف خارج الباب وأمره أن يأتيه في الحال بمفسّر أحلامه . وكان اسمه بهرام .

وكان بهرام شيخاً طاعناً في السنّ حوى من الحكمة والفضيلة ما لم يحوه أحد من أبناء زمانه . وممّا يُروى عنه أنّه كان يعرف لغة الطير والحيوان ، وأنّه تنبّأ عن أمور كثيرة فما خابت له نبوءة .

وما إن مثل الشيخ أمام الملك حتّى بادره الملك بقوله : « اليوم يومك يا بهرام . فإن صدقت في تفسير الحلم الذي حلمته اللّيلة فطيّر النوم من أجفاني تنازلتُ لك عن نصف مملكتي . وإن لم تصدق تنازلتَ لي عن حياتك . »

فأجابه بهرام بمنتهى التواضع والاحتشام : « عاش مولاي الملك . أمّا أن أصدق أو لا أصدق في تفسير الحلم فأمر لا أستطيع البتّ فيه . فما أنا غير قارىء في كتاب . وفي

الكتب ما يستعصي فهمه أحياناً إلاّ على كاتبه ، وإني لأرجو أن أوفّق اليوم ، كما وُفّقتُ فيما مضى ، إلى فهم ما أقرأ . وأمّا أن يتنازل الملك لي عن نصف مملكته إذا صدقتُ ، وأن أتنازل له عن حياتي إذا لم أصدق ، فما أنا ممّن يطمعون في ملك ولا أنا ممّن يبخلون بحياة . فليتلطّف الملك — عاش رأسه وسلم ملكه — بأن يقصّ عليّ حلمه . »

قال الملك : « حلمتُ أيّها الحكيم أن جيشاً عدوّاً جرّاراً جاء يغزو مملكتي . فخرجتُ على رأس جيش عرمرم لملاقاته . ولكنّنا ما قطعنا فرسخاً وبعض الفرسخ حتى اعترض طريقنا رجل رثّ الثياب ، حافي القدمين ، هزيل البنية ، يحمل قصبة طويلة كتب على رقعة في أعلاها :

نريد خبزاً لا دماً .

نريد عدلاً لا قانوناً .

نريد سلماً لا هدنة .

وقد بدا لنا من هيئة الرجل والقصبة التي في يده أنّه معتوه .

وطلبنا إلى الرجل مرّة واثنتين وثلاثاً أن يتنحّى عن الطريق ، وأفهمه رجالي أن الذي يطلب إليه التنحّي هو الملك بعينه . إلاّ أنّه ما تزحزح من مكانه . عندها أمرت حاشيتي بقطع رأسه وبتحطيم القصبة التي في يده . فانبرى له أحد الرجال واستلّ سيفه وأهوى به عليه . فقابله الأبله بالقصبة كما لو

كانت ترساً ، وإذا بالسيف يتطاير شظايا وتبقى القصبة سليمة .

حينئذٍ انبرى له ثانٍ وثالث ورابع حتّى آخر رجل من رجال الحاشية . وكلّهم عملاق جبّار . فكانت النتيجة واحدة : تتكسّر السيوف ، ولا تُمسّ القصبة بأذى ، ويبقى الرجل صامداً كالطود لا يتراجع خطوة ، ولا ينحرف يميناً أو شمالاً .

إذ ذاك كادت تنفجر مرارتي غيظاً من رجال حاشيتي . فصحت بهم : ابتعدوا من طريقي يا أرانب ويا ثعالب ! واستللتُ سيفي وانقضضتُ بجوادي على الرجل وأنا أحسبني سأسحقه سحقاً . ولكن سيفي طار من يدي إلاّ القبضة . ونشبت القصبة في بطن جوادي ومنه في صدري ، فخرّ الجواد صريعاً وهويتُ من فوقه وبي رمق أخير يصيح : « أين الرجال ؟ ! » وتراءى لي في لمحة الطرف ، وأنا أعالج سكرة الردى ، أن جيشي قد انتشر في سهل لا يُدرَك له أوّل ولا آخر ، وأن رجالي قد اصطفّوا في ذلك السهل كتفاً إلى كتف ، وفي يد كلّ واحد منهم قصبة طويلة كالّتي في يد المعتوه ، وتحت قدميه سيف مكسور ، وفي أعلى كلّ قصبة رقعة كتب عليها :

ليس بالخبز وحده
ولا بالعدل وحده

ولا بالسّلم وحده
يحيا الإنسان .

وعندها استفقتُ من نومي وفي فكري وقلبي وأحشائي من الاضطراب ما لا يوصف .

ذلك هو الحلم يا بهرام . فهات تفسيره . ولك الأمان . »

سمع الشيخ تفاصيل الحلم فأطرق طويلاً حتى عيل صبر الملك فصاح به :

« تكلّم ! أما قلتُ إنّك في أمان ؟ »

عندئذٍ رفع الحكيم بصره عن الأرض وحدّق إلى وجه الملك وأجاب بصوت لا خوف فيه ولا تردّد :

« عاش مولاي الملك . وليعلم أنّ حلمه نبوءة بنهاية ملك السيف وبداية ملك القلم . »

الملك وما دخل القلم في الأمر ؟

بهرام إنّ القصبة التي رأيتها في يد المعتوه ما كانت غير رمز للقلم .

الملك والمعتوه ؟

بهرام أمّا المعتوه فشاعر أو كاتب أو فيلسوف .

الملك والكتابة على رأس القصبة ؟

بهرام ذلك ما يطلبه الشعب في سرّه فلا يستطيع أن يعلنه غير شاعر أو كاتب أو فيلسوف يحسن استعمال

القلم ويحسن قراءة ما في ضمير الشعب .

الملك ألعلّ الشعب جائع ليطلب خبزاً ؟ إن مملكتي لتفيض بالخيرات . فكيف لشعبي أن يشكو الجوع ؟

بهرام الخبز موفور يا مولاي . ولكنّه معجون بالدم . وما دام السيف مصلتاً فوق رؤوس العباد كان خبزهم معجوناً بالدم . والإنسان مُطالَب بأن يأكل خبزه بعرق جبينه لا بدم قلبه . تلك حقيقة يجهلها السّيف ولا تجهلها القصبة . لذلك كتب على القصبة : نريد خبزاً لا دماً .

الملك والعدل ؟ أما لقّبني شعبي بالملك العادل ؟ أليس القانون يُطبّق في مملكتي على الكلّ بالسواء ؟

بهرام لقّبوك بالملك العادل لعلّهم يخفّفون من ظلمك . فعدلك عدل السّيف . لأنّك تحكم بالقانون الذي لا يقوم بغير حدّ السّيف . والسّيف ظالم أبداً وإن عدل .

الملك وكيف أحكم إن لم يكن بالقانون ؟

بهرام بالعطف واللّطف والرأفة والمحبّة يا مولاي . فعدل هذه غير عدل القانون . والسّيف لا يفهم لها معنى ولا يقيم لها وزناً . أمّا القصبة فتفهم المعنى وتقيم الوزن . ولذلك كُتب على القصبة :

نريد عدلاً لا قانوناً .

الملك	والسّلم ؟ ما أظنّ أن في الأرض مملكة ترفل في بحبوحة من السّلم كمملكتي .

بهرام	وسلمك يا مولاي هو سلم السّيف كذلك . وأنت قد انتزعته من جيرانك انتزاعاً . ولا تدري متى ينتزعه جيرانك منك . إن سلماً يقوم بالسّيف ينهار بالسّيف . فهو هدنة لا سلم . أمّا السّلم الذي يشاد على التفاهم والتعاون والتآخي فلا يتصدّع ولا ينهار . ذلك السّلم لا يفهمه السّيف وتفهمه القصبة . ولذلك كتب في أعلاها : نريد سلماً لا هدنة .

الملك	وما تفسيرك للسّيوف تتكسّر على القصبة وتبقى القصبة سليمة ؟

بهرام	معنى ذلك يا مولاي أن السيف سيمضي وتبقى القصبة .

الملك	ومتى كانت القصبة أقوى من السّيف ؟

بهرام	ما كانت ، ولكنّها ستكون .

الملك	أتدول دولة السّيف وتقوم دولة القصبة ؟ إنّك لتهذي أيّها الشيخ .

بهرام	قلت لمولاي إنّني لست غير قارىء في كتاب .

والذي أقرأه في حلم مولاي هو أن دولة السّيف آذنت بالغروب وأن دولة القلم آذنت بالبزوغ .

الملك وذلك السهل الفسيح الذي رأيته آخر ما رأيت وقد اصطفّ فيه الرجال كتفاً إلى كتف وفي يد كلّ واحد منهم قصبة كالتي في يد المعتوه وتحت قدميه سيفٌ مكسور — وفي أعلى القصبة : « ليس بالخبز وحده ولا بالعدل وحده ولا بالسّلم وحده يحيا الإنسان » — ماذا ترى كلّ ذلك يعني يا بهرام ؟

بهرام ذلك يعني يا مولاي أن الناس ، وقد تخلّصوا من سلطان السّيف بقوّة القصبة ، ونالوا الخبز والعدل والسّلم ، سيمضون يفتّشون بمعونة القصبة عن أشياء أبعد من الخبز والعدل والسّلم .

الملك وما عسى تلك الأشياء أن تكون ؟

بهرام إنّها أشياء في ضمير الزمان يا مولاي . وبصري أقصر من أن يدركها اليوم .

الملك يا خيبة فألي فيك يا بهرام . لقد ضيّعتَ حكمتك في شيخوختك . ولولا أنّني أمّنتك على حياتك لأمرت الآن بقطع رأسك بحدّ السّيف لعلّك لا تنسى أن السّيف كان وسيبقى أمضى من

القصبة . لكنّني سأحجر عليك في مقصورة من مقصورات قصري تطلّ منها على فِناء القصر الواسع لتبصر بعينيك ما سيفعله السّيف بالقصبة .

* * *

وأصبح الصباح فأمر الملك بجمع كلّ ما في مملكته من اقلام وبحرقها في الساحة الواسعة أمام القصر على مرأى من الجماهير . مثلما أمر بالزّجّ بكلّ الشعراء والكتّاب والفلاسفة في السجون .

وكان كما أمر الملك . فغصّت السجون بالشعراء والكتّاب والفلاسفة وامتلأت الساحة الواسعة بالأقلام . وأُضرمت النيران في الأقلام وارتفع دخانها ولهيبها في الفضاء حتّى كاد يحجب الشمس . وهلّل الناس وكبّروا وتعالت هتافاتهم : « عاش الملك ! » إلاّ معتوهاً كان يدفع القوم بمنكبيه محاولاً الوصول إلى رابية الأقلام المشتعلة . حتّى إذا بلغها من بعد أن خمدت نيرانها تناول منها فحمة وتسلّل من بين الجماهير إلى حيث كان علَمٌ يخفق فوق سارية عالية . فأنزله ورفع مكانه رقعة وقد كتب عليها بالفحمة التّي كانت في يده :

نريد خبزاً لا دماً !

نريد عدلاً لا قانوناً !

نريد سلماً لا هدنة !

وما هي إلاّ طرفة عين وانتباهتها حتّى مشت في الجماهير اهتزازات خفيّة كأنّها السّحر . وإذا بهم خضمّ متلاطم الأمواج . وإذا بصراخهم يشقّ عنان السّماء : « ليسقط الملك ! »

وكان بهرام ينظر من نافذته بعينين دامعتين . وعندما سُئل : أحزناً على الملك كان بكاؤه أم فرحاً بانتصار الشعب ؟ أجاب :

« لا ذاك ولا هذا . ولكنّها العجيبة التّي اجترحتها فحمة القصبة ! »

الخرافة الكبرى

من الحكايات التي سمعتها في صغري، وما أزال أذكرها ، حكاية فلاّح توثّقت عرى المودّة بينه وبين دبّ في جواره . فكان كلاهما يحرص على سلامة صاحبه وراحته حرصه على سلامته الخاصّة وراحته .

وذات يوم من أيّام الصيف أقبل الدبّ على الفلاح عند الظهيرة فوجده مستسلماً لنوم هنيء في ظلّ شجرة كبيرة ، فربض بجانبه لا يبدي حراكاً مخافة أن يفسد عليه صفاء قيلولته . وإذا بذبابة تحطّ على أنف الفلاّح فيروح يتململ في نومه محاولاً طردها فلا تنطرد ، بل تمضي تنتقل بمنتهى الوقاحة من أنف الرجل إلى أذنه ، ومن أذنه إلى ذقنه فشاربيه وشفتيه . فما كان من الدبّ الغيور على راحة صاحبه إلاّ أن تناول صخرة كبيرة بيديه وقذف بها الذبابة المزعجة . فما نالها بسوء ، وسحق رأس صاحبه .

تعود هذه الحكاية إلى ذهني كلّما فكّرت بكبار العالم في الزمان الحاضر وبما يبدونه من الغيرة على البشريّة وصحّتها وسلامتها . فهم يريدونها بشريّة هانئة ، مطمئنّة ، تغطّ في

نومها نوم الأبرار . ولذلك لا يبحّ لهم صوت ، ولا يكلّ لهم ساعد في الدفاع عنها ضدّ ذبابة وقحة لا تنفكّ تفسد عليها هناءتها وطمأنينتها . أمّا تلك الذبابة فالحرب . وأخشى أن ينتهي أولئك الكبار في دفاعهم عن البشريّة إلى مثل ما انتهى إليه ذلك الدبّ في دفاعه عن صاحبه فتسلم الحرب ، وتنسحق البشريّة .

ومن هم كبار العالم ؟ ألعلّهم صفوة البشريّة من حيث المعرفة الصحيحة ، والإرادة الصالحة ، والخلق الكريم ؟ ألعلّهم المؤمنون بأن الإنسان فرخ إله ، وبأنّه مدعو ليبسط سلطانه على الأرض ومن ثمّ ليقفز منها إلى السماء ، فهو لذلك أثمن ما في الأرض والسماء ؟ ألعلّهم كبار بمحبّتهم وصدقهم وسلامة نيّتهم ، وبتساهلهم وتسامحهم ، وبالمدى الذي تنطلق فيه بصائرهم وأبصارهم ؟ ألعلّهم كبار بترفّعهم عن الصغائر ؟

أسفاه ! إنّهم كبار كبر الدبّ بين الذباب ، وآكل النمل بين النمل ، والغراب بين العنادل . ويا ليتهم كانوا كباراً كبر البنفسجة بين العوسج ، والنحلة بين الزنابير ، والشمعة المشتعلة في الظلمات الدامسات .

وإنّهم أقوياء بما يستندون إليه من جيوش في ثكناتهم ، وأساطيل في بحارهم ، وقذائف جهنّميّة في مستودعاتهم ، وقاذفات للموت في مطاراتهم . ويا ليتهم كانوا أقوياء بأشواقهم

إلى الانعتاق من كلّ هذه الأشياء .

وإنّهم لأغنياء بما يملكون من فضّة وذهب ، ومن حيلة ودهاء ، ومن قدرة على التلاعب بأفكار الغوغاء وعواطف الدهماء . ويا ليتهم كانوا أغنياء لا بما يملكون من هذه الأمور بل بما لا يملكون .

وكيف يدافع كبار العالم عن العالم ؟ ومن أيّ السبل يسعون إلى إنقاذ البشريّة من تلك الذبابة المزعجة — ذبابة الحرب ؟ إن لهم في ذلك خرافات لا تحصى . وأكبرها وأدهاها الخرافة القائلة : « إذا أردت السّلم فاستعدّ للحرب . »

وهي الخرافة التي ما برح كبار الأرض يروّجون لها بأقوالهم وأفعالهم وأموالهم منذ أن استوطن الإنسان الأرض . فكان من رواجها أن انساق صغار الأرض في ركاب كبارها . وراح الكلّ — كباراً وصغاراً — يكتبون تاريخ البشريّة بالدمع والدم . فما تتيبّس أيديهم ، ولا تجحظ أبصارهم ، ولا تضطرب أمعاؤهم ، ولا تتقزّز أنفسهم ، ولا تقف أنباضهم من هول ما يكتبون . وهل أفظع لبشريّة ما فتئت تنشد السّلم من أن يكون تاريخها تاريخ نار ودماء ، وشقاء وفناء ، وغدر وثأر ، وكره وضغينة ، وخصام وانتقام ينزلها الإنسان بالإنسان ؟ ثمّ هل أفظع من أن يمجّد كاتبو ذلك التاريخ أولئك النفر من الناس الذين كانوا أشدّهم فتكاً بالناس ،

فيجعلوا منهم أبطالاً وأنصاف آلهة حريين بالتعظيم ؟

أليس من الخزي والعار أن تقطع البشريّة ما قطعته من آلاف السّنين ، وأن يكون الجانب الأكبر من تاريخها تاريخ حروب شنّها الإنسان على الإنسان بدلاً من أن يكون تاريخ حرب واحدة شنّها الناس معاً على كلّ ما من شأنه أن يحول بينهم وبين ما يتوقون إليه من سلم وهناء ومعرفة وحريّة ؟

أما كفى الإنسان حرباً أنّه في كلّ لحظة من وجوده يناضل ضدّ الجوع والحرّ والقرّ والمرض والجهل والموت ؟ أما كفاه أنّه في جهاد دائم مع نفسه حتّى يُفرَض عليه الجهاد ضدّ إنسان مثله منهمك في حربه مع الجوع والحرّ والقرّ والمرض والجهل والموت ، وفي حربه مع نفسه ؟ أليس الأحرى بمحاربَين يقاتلان عدوّاً واحداً في ساحة واحدة أن يوحّدا قواهما في محاربة العدوّ المشترك بدلاً من أن يهدراها هدراً في حربهما الواحد ضدّ الآخر ، فيسلم العدوّ ويهلكا ؟

ذلك ما يقضي به المنطق السّليم وتفرضه المصلحة الحقّة . إلاّ أنّ لكبار العالم منطقاً لا ينطبق على المنطق ، ومصلحة تنافي كلّ مصلحة . ففي منطقهم أنّه إذا التقى جائعان يفتّشان عن رغيف فالمصلحة تقضي على أحدهما أن يفتك بالآخر ليكفل لنفسه الرغيف الذي ما يزال في عالم الغيب بدلاً من أن يتعاون الاثنان في التفتيش حتّى إذا ظفرا بالرغيف اقتسماه

فكان حياة لكليهما . وإذا ترافق اثنان في طريق وانبرى لهما نمر فمن مصلحة الواحد أن يبطش برفيقه بدلاً من أن يتكاتف وإيّاه على البطش بالنمر . وإذا سار اثنان في ظلمة دامسة فمن الخير لأحدهما أن يفقأ عيني رفيقه لتنكشح الظلمة من حواليه ويبصر طريقه بدلاً من أن يتوكأ أحدهما على الآخر ريثما تنكشح الظلمة من حواليهما . وإذا تلاقى مركبان في عرض البحر وكان كلاهما في خطر الغرق فالدفاع عن النفس يقضي بأن يغرّق أحدهما الآخر بدلاً من أن يتضامنا في حربهما مع البحر .

كلّنا جياع وعطاش وعراة . وكلّنا في ظلمات دامسات . وكلّنا في كفاح مستمر ضدّ الطبيعة وعناصرها ، وضدّ الجراثيم والأوبئة ، وضدّ ما تحجّب فينا ومن حولنا من أسرار البقاء والفناء ، وضدّ الحزن والألم ، وأخيراً ضدّ الموت . فبأيّ منطق يقاتل بعضنا بعضاً بدلاً من أن نكون جيشاً واحداً ، وإرادة واحدة ، وسلاحاً واحداً في حربنا مع الجوع والعطش والعري ، ومع الظلمة وما يختبيء في تلافيفها من أمراض وأوبئة ، ومن حزن وألم فموت ؟

ولماذا يحبّ الناس السّلم ويباركونه ، ويكرهون الحرب ويلعنونها ؟ ألأن السّلم يعني الهناء والحرب تعني الشقاء ؟ أم لأن السّلم حياة والحرب موت ؟ وها هم يشقون في السّلم

ويموتون مثلما يشقون في الحرب ويموتون .

إنّما يطلب الناس السّلم ليتاح لهم أن يحاربوا أعداءهم الذين من حولهم ، وأعداءهم الذين فيهم . فلا الجوع ولا العطش ولا العري ، ولا المرض ولا الجهل ولا الخوف ولا الألم ولا الموت تنفكّ لحظة عن مهاجمتهم . وإنّما يكره الناس الحرب لأنّها تصرفهم عن محاربة أعدائهم إلى محاربة أنصارهم . فما من إنسان عاش على الأرض إلاّ كان نصيراً لكلّ الناس في حربهم الأبديّة ضدّ أولئك الأعداء . فهل أشدّ حماقة وأفظع غباوة من نصير يقتل نصيره ، وحليف يفتك بحليفه ؟!

وإذن فالسّلم ليس غاية ترتجى في ذاتها ولذاتها . ولكنّه وسيلة إلى غاية . إن هو إلاّ حالة تمكّن الإنسانيّة المحاربة من تنسيق قواها وتوحيد سلاحها وقيادتها في حربها مع أعدائها الألداء . وهذه الوسيلة في يد الإنسان تنقلب إلى مكيدة ضدّه وإلى سلاح في أيدي خصومه كلّما نفخ النّافخون في بوق الحرب فراح الناس يتهاوشون ويتسابقون ويتقاتلون ويتذابحون . فيعضّون التراب في حين أن أعداءهم يتنادمون ويتسامرون ويتزاوجون ويتكاثرون .

والسّلم لا يكون سلماً إلاّ إذا صفا جوّه من غيوم الحرب ، فانصرف الناس إلى نضالهم مع أنفسهم ومع الطبيعة وكلّهم

مطمئن إلى أن شريكاً له في النضال لن يغدر به ويبادره بطعنة نجلاء في ظهره أو في جنبه أو في بطنه أو في أمّ رأسه . وإذ ذاك فقولهم : إذا أردت السّلم فاستعدّ للحرب – قول هراء وخرافة شنعاء . إنّه لجريمة نكراء ضدّ السّلم وضدّ الإنسان . إذ كيف لنا أن نستعدّ للحرب من غير أن نقيم لها وزناً ، ومن غير أن نبني لها المعاقل والحصون في أفكارنا وقلوبنا ، ومن غير أن ننفق عليها الكثير من وقتنا ومن لحمنا ودمنا ؟ وما دمنا في زمان السّلم ننفق من أفكارنا وقلوبنا ومن لحمنا ودمنا على الحرب في سبيل الحرب ، فأيُّ السّلم سلمنا وأين نحن من حربنا مع الطبيعة ومع أنفسنا ؟

أنملأ آذاننا وأعيننا وأنوفنا بأخبار الحرب ، ومشاهد الحرب ، وروائح الحرب ، ثمّ نقول إنّنا في سلم ؟ أما كان الأحرى بنا في زمان السّلم لو ملأنا قلوبنا وأفكارنا بأخبار السّلم ، ونبذنا كلّ ذكر للحرب ؟

ما أجمل أن تفتح صحيفة ، أو أن تسمع إذاعة ، أو أن تحضر اجتماعاً لا أثر فيها للحرب والخوف من الحرب ، بل كلّ ما فيها أخبار عن انتصارات جديدة أحرزها الإنسان في حربه مع نفسه ومع الطبيعة . لكن سلماً يجثم على صدره شبح الحرب فلا تسمع فيه غير حديث الاستعداد للحرب لسِلم أشدّ هولاً من الحرب . وهو السّلم الذي نحن فيه

ليوم واللدي جلبته علينا الخرافة الكبرى . ولو أن كبار العالم الذين يدّعون الغيرة على الإنسانيّة وهنائها كانوا أوفر ذكاء من الدبّ في الحكاية لما روجوا لتلك الخرافة الحمقاء . ولو أنّهم كانوا كباراً حقّاً لاقتنعوا وأقنعوا الناس بعكس تلك الخرافة فقالوا :

« إذا أردت الحرب فاستعدّ للحرب . وإذا أردت السّلم فاستعدّ للسّلم . »

رحابة الصّدر

قال لقمان لابنه عند تولّيه الحكم في جزائر واق الواق :

يا بنيّ !

ثلاث لا يستقيم معها حكم لحاكم : أن يحبّ الحكم فوق حبّه للمحكوم . وأن يُخضع العدل للقانون . وأن يضيق صدره بمعارضيه . والأخيرة هي الأهمّ .

وثلاث لا يستقيم بدونها حكم لحاكم : أن يحبّ المحكوم فوق حبّه للحكم . وأن يُخضع القانون للعدل . وأن يتّسع صدره لمعارضيه . والأخيرة هي الأهمّ .

لئن اكتملت لك كلّ الصفات الحميدة ، يا بنيّ ، إلاّ رحابة الصدر ، بقيت ريشة في مهبّ الريح وألعوبة في أيدي محكوميك . ورحابة الصدر تعني الصبر الجميل على المعارضة من أيّ نوع كانت ومن أيّما مصدر جاءت ، كيما يتاح لك أن تقوّم اعوجاجك أو أن تقوّم اعوجاجها إذا كانت معوجة وكنت مستقيماً . أمّا أن تحاول القضاء على كلّ معارضة فأمر أعيذك منه ، يا بني ، لأنّه فوق طاقتك وطاقة أيّ إنسان . ومن ثمّ فأنت بغير معارضة جواد بغير لجام ومركب

بغير شراع .

ألا فاعلم ، يا بني ، أن لكلّ ما في الكون معارضاً أو نقيضاً . بذا قضت الحكمة التي لن تدركها بعقلك وقد تدركها يوماً بقلبك . فحياة وموت ، ونور وظلمة ، وحرارة وبرودة ، وحركة وسكون ، وجذب ودفع ، ورجاء ويأس ، وإيمان وشكّ ، وفرح وحزن ، إلى آخر ما هنالك من متناقضات لا تقع تحت حصر .

لولا المعارضة ، يا بني ، لما كانت حركة أو حياة . فهي من الأكوان حجر الزاوية ، ومحور الدائرة ، ونقطة الانطلاق . وأنت لو سلكت إلى غايتك من حياتك مسالك الكواكب في أبراجها ، أو مسالك الحيتان في أعماقها ، أو مسالك النّسور في أجوائها ، لما نجوت من المعارضين لإرادتك وغايتك . لذلك فأحوج ما تحتاج إليه في حياتك ، سواء أكنت حاكماً أم محكوماً ، هو صدر لا يضيق بمعارضة المعارضين ، بل يتقبّلها بالشكر والفرح ، عالماً أنّه لولاها لالتوت سبله ، وشلّت إرادته ، وطاشت سهامه .

وإنّك لواجد أبلغ مثال على صحّة ما أقول في حكاية جدّيك آدم وحواء وخروجهما على إرادة خالقهما بامتثالهما لإرادة الحيّة . فكأنّ الله الذي خلق تلك الحيّة خلق فيها معارضاً لإرادته كيما يخرج بآدم وحواء من الغفلة المستسلمة

إلى اليقظة المتحفّزة ، ومن اللا إرادة إلى الإرادة .

لقد شاء الله ، لحكمة نجهلها اليوم ، ولكنّنا لن نجهلها إلى الأبد ، أن يُقيم بمشيئته معارضاً لمشيئته . ولولا ذلك لما خلق الحيّة . ولو أن المعارضة ما كانت بعضاً من نظامه الشامل لقضى على الحيّة حالما عارضته . ولمحا آدم وحواء من سجل الحياة فور خروجهما على مشيئته . إلاّ أنّه ما فعل شيئاً من ذلك . واكتفى بأن لعن الحيّة وبأن أخرج آدم وحواء من جنّة عدن . أي من غيبوبة لا معارضة فيها إلى استفاقة كلّ ما فيها معارضة . أليس معنى ذلك أنّ المعارضة هي الطريق الأوحد إلى المعرفة والحياة والحريّة ؟

لقد كان الله ، وهو القدير على كلّ شيء ، رحب الصدر إلى حدّ أنّه خلق من ذاته معارضين لذاته . فما كمّ أفواههم إذ عارضوه . ولا ردّهم عن المعارضة بالقوّة . ولا زجّ بهم في السجون . ولا محق آثارهم من الأرض . بل ، على العكس من ذلك ، أبقى على حياتهم وأطلق لهم الحريّة في عالم يعارض بعضه بعضاً بغير انقطاع ، لعلّهم — في آخر الدهر — ينتهون من المعارضة والمشاكسة إلى التفاهم والتآلف . ثمّ إلى المعرفة التي لا يفوتها علم شيء . ثمّ إلى القدرة التي لا تعاندها قدرة . ثمّ إلى الحريّة التي لا يحدّها حدّ .

أمّا أنت ، يا بني ، فما دمت بعيداً عن المعرفة التي لا يفوتها

علم شيء ، وعن القدرة الّتي لا تعاندها قدرة ، وعن الحريّة الّتي لا يحدّها حدّ ، فحذار أن يضيق صدرك بمعارضة معارض ، أو بمنافسة منافس . فأنت كلّما تبرّمت بمعارضيك ومنافسيك شددت أزرهم عليك ، وشحذت سلاحهم ضدّك ، وربطت حبلاً بعنقك ثمّ سلّمتهم طرف الحبل فاقتادوك إلى حيث يريدون لا إلى حيث تريد . وحادوا بك عن جادة الصواب إلى جادة الضلال .

حذار ثمّ حذار ، يا بني ، أن تزدري أيّ إنسان من الناس . فقد يستنسر البغاث ، وقد تستأسد الثعالب . والبغاث إذا استنسر كان أحدّ مخلباً وأقوى منسراً من النسور . والثعالب إذا استأسدت كانت أشدّ بأساً وأفظع بطشاً من الأسود . وأنت في الواقع لا تعرف أيّ الناس هم البغاث والثعالب وأيّهم النسور والأسود . لذلك أوصيك برحابة الصدر تجاه الأقوياء والضعفاء بالسواء .

واحذر ، يا بني ، الذين يغالون في مدحك قبل أن تحذر الذين يغالون في قدحك . واحذر أكثر من المادحين والقادحين أولئك الذين لا يمدحون ولا يقدحون . فسلاحهم أمضى من سلاحك لأن صدورهم أرحب من صدرك . وهم يعرفون أن مادح السلطان كاذب وإن صدق . وأن قادح السلطان صادق وإن كذب . ولأنّهم يعرفون ذلك تراهم لا يمدحون ولا

يقدحون. لذلك أوصيك برحابة الصدر تجاه القادحين قبل المادحين.

واحذر كذلك، يا بني، أن تسوس الناس بالقانون لا غير. ذلك هو الظلم بعينه. فالقانون طوق واحد لرقاب عديدة متفاوتة الحجم والقوّة. فرقبة الثور غير رقبة النملة. ورقبة الخنزير غير رقبة الحمامة. ورقبة الحوت غير رقبة البرغشة. وحبسك الخلد والهزار في ظلمات الأرض هو خير الثواب للخلد وأقسى العقاب للهزار. وحجبك نور النهار عن البومة منّة. أمّا حجبك إيّاه عن النحلة فجريمة.

ثمّ لا يغرنك، يا بني، أن القانون في يدك يخولك سلب الحياة والرزق والحريّة. بل عليك إذا شئت أن تعدل أن تعرض الحبل على عنقك قبل أن ترسل أحداً إلى المشنقة. وقبل أن تزجّ بمخلوق في السجن أن ترسل قلبك إلى السجن. وقبل أن تسلب إنساناً رزقه أن تتخلّى عن كلّ ما لديك من أرزاق. فإذا استطعت ذلك ثمّ حكمت على غيرك بالشنق، أو بالسجن، أو بتجريده من ممتلكاته، كنت عادلاً في حكمك وإن خالفت القانون. وإلاّ كنت ظالماً وإن يكن القانون بجانبك. فالناس في الخير والشرّ سواسية. وأنت لا تعلم أيّهم الأكثر خيراً، وأيّهم الأكثر شرّاً. لذلك أوصيك برحابة الصدر حتّى تجاه المجرمين. فقد تكون منهم من حيث تدري ولا تدري.

واذكر ، يا بني ، أن الحكم سيف ذو حدّين . فحدّ للمحكوم . وحدّ للحاكم . فإن شئت ألاّ يرتدّ السيف إلى صدرك حذارِ أن تردّه إلى صدر غيرك .

ما اختصم اثنان ، يا بني ، في أمر من الأمور إلاّ لأن صدر كليهما ضاق بمعارضة الآخر. ومن ضاق صدره بالمعارضة ضاق بالحياة التي لا تقوم بغير المعارضة . ومن ضاق صدره بالحياة فما نفعه من تجاريب الحياة ؟ إنّه لعبء على الحياة والموت معاً .

تعلّم رحابة الصدر ، يا بني ، من الأرض ومن البحر ومن الهواء . فالأرض لا تضيق بالظربان دون الغزلان . وبالعوسجة دون البنفسجة . وبالتراب دون التبر . وبالأشرار دون الأبرار . والبحر لا يقبل الحوت دون الأخطبوط . واللؤلؤة دون الإسفنجة . والجدول الصافي دون الساقية العكرة . ومراكب الحجّاج دون مراكب القرصان . والهواء لا يرقص لشدو البلبل ويمتعض لنقيق الضفدع . وهو لا يسكر بشذا الزنبقة ويتقيّأ أمعاءه لرائحة جيفة . وهو لا يعتزّ بالبازيّ ويخجل بالخفاش . وهو لا يستأنس بالنهار ويستوحش بالليل . لذلك أوصيك برحابة الصدر قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء .

إي ، بنيّ ، تلك هي وصيّتي إليك ألقيها وديعة في قلبك ، ولا أشدّها حبلاً في عنقك ، مخافة أن يفلت قيادك من يدك . فكن أميناً على وديعتك . وسر على بركات الله .

سحر الطفولة

ما السرّ في انجذابنا إلى الطفولة انجذاباً هو السحر وأكثر ؟ نتأمّل كائناً صغيراً فتميع قلوبنا عطفاً عليه ونودّ لو نضمّه ونشمّه ، ولو نداعبه ونلثمه ، ولو نلفّه بشغاف القلب وننزله في بؤبؤ العين ، سواء في ذلك حمل الشاة ، وجرو القطة ، وخشف الغزالة ، وفرخ الدجاجة . فما قولك بالطفل الآدمي ؟

الطفولة جهل مطبق . ونحن نكره الجهل في كلّ مظاهره ونسعى بكلّ قوانا إلى التخلّص منه . ولكن التفتيش عن المعرفة يكلّفنا الكثير من العناء ، ويتركنا في شكّ دائم وحيرة مقيمة من أمر ما نظنّنا نعرفه . فما أكثر ما نحسبنا هتكنا الحجاب عن سرّ من أسرار الكون الخارج عنّا والقائم فينا وإذا بذلك السرّ عينه ينحسر عن أسرار جديدة وألغاز جديدة ، وكلّها محجّب بألف حجاب .

أترانا عندما نتعشّق جهل الطفولة فإنّما نتعشّق غبطة نتوهّمها في ذلك الجهل على حدّ قول المثل الإنكليزي : « الجهل غبطة » ؟

أم ترانا ننجذب إلى جهل الطفولة اعترافاً منّا بأن ما بلغناه

من معرفة ليس بمعرفة ، وتبرّماً بالمشقّات التي نتكبّدها في التفتيش عن المعرفة ؟

أم ترانا نغتبط بجهل الطفولة لأنّنا نؤمن بأن ذلك الجهل ينطوي على مفاتيح المعرفة الكاملة نظير ما تنطوي البذرة على الشجرة ، والبيضة على الطائر ، والذرّة على الحياة والحركة ؟

* * *

والطفولة منتهى العجز والاتكالية . ونحن نمقت العجز والاتكال ، ونغالي في طلب القوّة والاستقلال ، ونستبيح كلّ سلاح في الدفاع عن أنفسنا .

ألعلّ حبّنا لعجز الطفولة واتكالها ليس أكثر من إقرارنا بعجزنا ، وبتهرّبنا من الكفاح في سبيل العيش ، ومن المسؤوليّات الجسام التي تلقيها على كواهلنا الحياة ؟

أم لعلّنا ، إذ نميل بكلّ جوارحنا إلى عجز الطفولة واتّكالها ، فإنّما نعبّر عن شوق دفين فينا إلى حياة مثلى كتلك التي صوّرها السيّد المسيح عندما قال لتلاميذه :

« انظروا إلى طيور السماء فإنّها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء . وأبوكم السماوي يقوتها . أفلستم أنتم أفضل منها ؟ . . اعتبروا زنابق الحقل كيف تنمو . إنّها لا تتعب ولا تغزل . وأنا أقول لكم إنّ سليمان في كلّ مجده لم يلبس كواحدة منها . فإذا كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ،

وفي غد يُطرح في التنور ، يُلبسه الله هكذا ، أفلا يُلبسكم بالأحرى أنتم يا قليلي الإيمان ؟ »

أم لعلّنا نبصر في عجز الطفولة جرثومةَ القدرة على كلّ شيء ، وفي اتّكالها الوعودَ التي لا يتسرّب إليها الشكّ بأنّها ستنتهي بأن تسخّر كلّ ما في الكون لخدمتها ، عن وعي سابق وعن تصميم ، مثلما تسخّره الآن عن غير وعي وبدون تصميم ؟

* * *

والطفولة إباحية سافرة ، ونحن نتستّر من الإباحية بألف ستار من قوانين وضعناها للحشمة والوقار ، وللتعارف والتخاطب والتعامل . وتلك القوانين قد أباحت لنا أشياء وحرّمت علينا أشياء . وترانا ، مع ذلك ، ننتشي بإباحية الطفولة ونحدث عنها بإعجاب ، ونحاول تقليدها في ظروف نخلقها لتلك الغاية خلقاً . كالمساخر بأنواعها حيث تمحى الوجوه والأسماء والشخصيّات ، وتُطرح مراسم اللياقة والوقار جانباً ، ويباح الكثير من المحرمات .

أيعني ذلك أن الإباحية صفة أصيلة في كياننا ، وأنّنا نشتاقها بكلّ ما فينا من حرارة الشوق ، فلا نلجمها إلاّ مكرهين ، ولا نتخلّى عنها إلاّ لغاية وإلاّ إلى حين ؟

أم أنّ انشغافنا بإباحية الطفولة لا يعني غير مقتنا للحواجز

الشائكة التي أقامتها الهيئة البشريّة في وجه شهواتنا السود ؟

أم هو تفريق بين إباحية الكبار الأثيمة وإباحية الصغار الطاهرة ، وأمل شريد بعيد بأن نعتق يوماً من جميع القيود والحدود ، وننطلق في عالم كلّ ما فيه مباح لنا لأن كل ما فينا مباح له ، ولأنّه فوق خيرنا وشرّنا ، وحلالنا وحرامنا ، وأجمل من أن ننعته بالجميل ، وأكمل من أن ندعوه كاملاً ؟

* * *

والطفولة أنانية جامحة . فالطفل إن صادف هوى في نفسه صولجان ملك ، أو عكّاز كسيح ، أو قمر في السماء ، أو عصفور على فنن ، أو قلادة في عنق غادة ، ما خالجه أقلّ ريب في حقّه بأن تكون كلّ هذه في قبضته وتحت مطلق تصرّفه . ونحن ما ننفكّ نشترع الشرائع ونخلق التقاليد للحد من أنانيّة الإنسان تجاه أخيه الإنسان وتجاه الطبيعة . فكيف نوفّق بين حبّنا للطفولة وأنانيتها الجامحة وبين شرائعنا وتقاليدنا التي ليست سوى قيود نفرضها بالقوّة على الأنانيّة البشريّة ؟

أنقول إن الأنانيّة نوعان : نوع تباركه الحياة ، وهو أنانية الصغار ، ونوع تلعنه ، وهو أنانية الكبار ؟

لعمري إن الأنانية أنانية ، أكانت أنانية طفل في مهده أم أنانية شيخ على شفير لحده . ويقيني أنّنا ما أحببناها في الصغير وكرهناها في الكبير إلاّ لأنّها في الصغير سافرة ظاهرة ،

وبغير حدّ . ولأنّها في الكبير متستّرة ، متكتّمة ومحدودة . تلك أنانية ربّانية لا تماري ولا توارب ولا تداجي . وهذه أنانية تمشي في ثوب الحمل الوديع ولها أنياب الذئب وأظافره .

* * *

أعود فأسأل عن السرّ في انجذابنا إلى الطفولة فلا أجد له غير تفسير واحد يرضى به فكري ويطمئن إليه قلبي . وهو أن حالة الطفولة التي تبتدىء بها دورة الحياة البشريّة إنّما ترمز إلى حالة الغبطة التي ستنتهي إليها . فالحياة ، وإن تراءت لنا كما لو كانت تسير في خطوط مستقيمة أو ملتوية ، لا تسير في الواقع إلاّ في دوائر . فبذور تنبت وتزهر وتثمر لتعود بذوراً . وفصول تدور بعضها على بعض وأواخرها مقطورة أبداً بأوائلها . ومياه تخرج بلا انقطاع من البحر لترجع في النهاية إلى البحر .

ولكن قطرة تنطلق من البحر فتدور دورتها ثمّ تعود من حيث أتت تكتسب صفاتٍ ما كانت لها قبل انطلاقها من البحر .

كذلك ينطلق الإنسان من قلب الوجود ، وقد انطوت فيه كلّ أسرار الحياة ، ليعود إلى قلب الوجود وقد انكشفت له كلّ أسرار الحياة . ينطلق طفلاً عاجزاً جاهلاً ليعود كائناً قادراً على كلّ شيء وعليماً بكلّ شيء . وما الأعمار يطويها

دورة بعد دورة غير مراحل في طريق الخير والشرّ الذي لا طريق إلاه إلى المعرفة والقدرة والحريّة .

وإذ ذاك فالسحر الذي ينفذ إلى قلوبنا لدى احتكاكنا بالطفولة ليس أكثر من انتفاض الأشواق الدفينة فينا إلى حياة تشبه حياة الطفولة في انعتاقها من قيود الخير والشرّ ، والزمان والمكان ، وفي إباحيتها الطاهرة السافرة ، وأنانيتها الجامحة الشاملة . وتختلف عنها في وعيها اللامتناهي وقدرتها على أن تعول الكون بدلاً من أن تكون عالة على الكون .

لولا إيماننا بحكمة الحياة وعدلها وجمالها لما تعلّقنا بأذيالها تعلّق الرضيع بثدي أمّه . ولولا أنّها لم تشأ لنا غبطة أسمى بما لا يقاس من غبطة الطفولة لما تخطّت بنا الطفولة إلى الصبا ، فإلى الشباب ، فإلى الكهولة ، فإلى الشيخوخة ، فإلى القبر . ولو لم تكن الطفولة وعداً لنا بأن تلك الغبطة السامية لن يحول بيننا وبينها قبر أو زمان لما كان للطفولة في حياتنا ذلك السحر الذي يتحدّى الوصف والتحليل .

* * *

فألف سلام على الطفولة الطاهرة الساحرة . وألف سلام على الحياة الحكيمة الحليمة التي جعلت لنا من مرح الطفولة الجاهلة العاجزة المستسلمة باباً إلى الغبطة التي كلّها معرفة ، وكلّها قدرة ، وكلّها انطلاق .

الدّينُ وَالمدرسَـة

قامت المدرسة أوّل ما قامت في كنف الدين وترعرعت في حضنه . وما ذلك الماضي ببعيد يوم كان الراغب في تعلّم القراءة والكتابة لا يجد له معلّماً غير راهب في دير، أو كاهن في معبد ، أو شيخ في مسجد ؛ ثمّ لا يجد كتباً يستعين بها على الدرس والتحصيل غير الكتب الدينيّة .

ومرّت عصور كانت المدرسة في خلالها عالة على الدين ورجاله ومنهلاً لا يرده إلاّ القليل من ذوي اليسار وذوي العطش القتّال إلى نهلة من المعرفة . إلى أن قامت الدولة الحديثة بحاجاتها المتشعّبة ، ومطامعها الواسعة ، وواجباتها المتشابكة ما بين تشريع وقضاء ، وتنظيم اقتصادي وسياسيّ ، وتسيير علاقاتها مع باقي الدول في الحرب والسّلم . فكان لا بدّ لها من جيوش جرّارة من الموظفين الذين يحسنون تصريف شؤونها والسهر على سلامتها . وهؤلاء الموظفون ، وإن تفاوتت مراتبهم وواجباتهم ، كانوا في حاجة إلى شيء من الدرس والتحصيل . وإذن فلا بدّ للدّولة من مدارس .

وكانت الخطوة الأولى تخطوها الدولة نحو المدرسة . فتستقل

المدرسة ، إلى حدّ ، عن الدير والهيكل والمسجد .

ثمّ جاء العلم الحديث بمختبراته وفتوحاته . وإذا المدرسة عالم شاسع ، له بداية وليس له نهاية . وإذا بالدولة لا تستطيع القيام بواجباتها بغير المدرسة وبغير العلم . لذلك تنتهي بأن تتبنّى المدرسة وأن تجعل التعليم إجباريّاً في درجتيه الابتدائيّة والثانويّة . وقد لا ينقضي قرنٌ نحن فيه حتّى يصبح التعليم إجباريّاً في كلّ أقطار الأرض ، وحتّى يباح التعليم العالي لكلّ راغب في زيادة .

لقد انتقلت المدرسة من كنف الدين إلى كنف الدنيا — من الدير والهيكل والمسجد إلى وزارة المعارف .

وإن تسألوني عن المدرسة أين كانت أحسن حالاً وأقوم خطى في السير نحو أهدافها : أفي الدير والهيكل والمسجد أم في وزارة المعارف ؟ — أجبكم بأنّها ما وجدت بعد أهدافها لا هنا ولا هناك ولا هنالك . فقد كانت في الدير والهيكل والمسجد مطية لإثارة نعرات طائفيّة الله ورسله وأنبياؤه منها براء . وهي في وزارة المعارف مطيّة لأغراض قوميّة ، زمنيّة أرضيّة ، إذا حصر الإنسان همّه فيها لم يبقَ من عظيم فرق بينه وبين الحيوان .

إنّما رسالة المدرسة ، في اعتقادي ، هي تمهيد السبيل للإنسان للتغلّب على الحيوان . ثمّ النهوض بالإنسان إلى ما

فوق الإنسان ، إلى الله . وتلك لعمري هي رسالة الدين . على هذا الصعيد لا على سواه يستطيع الدين والمدرسة أن يتلاقيا ، وأن يتحالفا . ولهذه الغاية لا لغيرها يليق بهما ، بل يتحتّم عليهما ، أن يعملا يداً واحدة فتغدو المدرسة هيكلاً ويصبح الهيكل مدرسة ، وحتى يكون ذلك ستبقى الإنسانيّة خشبة في عرض اليمّ تتقاذفها الأهواء والأنواء ، فلا تهتدي إلى ملجإٍ أو ميناء .

تتسابق الدول في هذه الأيّام إلى تعزيز مدارسها وتوسيع نطاق علومها وفنونها . والمجلّية المجلّية منها هي التي تمكّنت من القضاء على الأميّة ، ومن استثمار العلم والفنّ استثماراً يزيد في ثروتها ، ويدعم هيبتها ، ويرفع مكانتها بين الدّول . فالمدرسة الحديثة لا تعدو كونها مختبراً هائلاً لا لخلق الرجال ، ولا للنهوض بالإنسان إلى ما فوق الحيوان ، بل لخلق مشاكل جديدة بخلق حاجات جديدة ، ولتنمية خيرات الأرض ثمّ للنزاع على اقتسام تلك الخيرات ، ولتثبيت كيان زمني زائل يدعى الدولة . فهدفها هو أن توفّر لإنسان اليوم من القوت والكساء والمأوى ، ومن أساليب اللهو والمتعة ، ومن وسائل النقل والحركة ، ومن أسباب القوّة والاعتزاز بالنفس أكثر ممّا كان موفوراً لإنسان الأمس .

ألا قولوا للذين جعلوا غاية الإنسان من وجوده متعة البطن

والعين والأنف والأذن إن للحيتان في بحارها والجواميس في مراعيها مثل تلك المتعة . أفلا فرق بين الإنسان وبين الحوت والجاموس ؟

وقولوا للذين جعلوا هدفهم جمع الثروات وتكديس الخيرات إن النملة كذلك تنفق عمرها في الجمع والتكديس . أوَليس الإنسان بأفضل من النملة ؟

وقولوا للذين جعلوا القوّة هدفاً للإنسان إن في قرن الثور وساعده قوّة أين منها قوّة الإنسان . ألعلّ الثور خير من الإنسان ؟

ثمّ قولوا للذين حصروا غاية الإنسان من حياته في تجديد النسل وتكثيره إن البعوض كذلك يتناسل ويتكاثر . ألعلّ الإنسان والبعوضة سيّان ؟

أجل . إن الإنسان لمن لحم ودم . وكذلك الحيوان . فهما من ذلك القبيل صنوان . ولكنّ الحيوان يعيش بلحمه ودمه للحمه ودمه . فهو لا يعرف له هدفاً غير الأكل والشرب والتناسل . وهو يسعى إلى هدفه بقوّة كامنة في كيانه ندعوها الغريزة . أمّا الإنسان ، وإن ساقته إلى حاجات اللحم والدم عين الغريزة التي تسوق الحيوان ، فيحسّ في داخله قوًى جيّاشة وأشواقاً لافحة إلى الحدّ من سلطان تلك الغريزة وإلى التغلب عليها في النهاية ، فهو يطمح أبداً إلى الانعتاق من

ربقة الغريزة والإفلات من عقال البهيمة .

ذلك ما ترمي إليه جميع الشرائع الأرضيّة وتلك التي ندعوها سماويّة . وإلاّ فما معنى قولكم للإنسان : « لا تقتل . لا تزنِ . لا تسرق . لا تشهد بالزّور . لا تشتهِ مقتنيات قريبك . لا تقابل الأذية بالأذية » ؟ ما معنى الصوم والصلاة والتوبة والغفران ؟ أليست هذه كلّها شكائم في فم الغريزة وأغلالاً في عنقها وأصفاداً في رجليها ؟ ثمّ ما معنى هذه الأشواق التي لا تنطفىء إلى السلام الدائم ، والعدل الكامل ، والجمال الذي لا يذوي ، والحريّة التي لا تُحدّ ، والحياة التي لا تموت ، وكلّها لا يفقه له الحيوان معنى ولا يمتّ إلى اللّحم والدم بصلة ؟ أليست هذه الأشواق دليلاً على تبرّمنا بسلطان الغريزة علينا ، ثمّ دليلاً لنا على الهدف الأبعد والأسمى من وجودنا ؟

لذلك أقول بأنّ الإنسان مطالَب بأكثر من الأكل والشرب وتجديد النسل ، وبأكثر من تذليل البحار والقفار والجوّ ، وبأكثر من بناء المدن والمعامل والمعاقل ، واقتسام الأرض وترابها ومعادنها ، وتشييد الممالك والذود بالمال وبالأرواح عن حياضها . إنّه مطالَب قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء بكبح جماح البهيمة في طبيعته ، ثمّ بالارتقاء إلى ما فوق البهيمة ، ثمّ بالسموّ إلى ما فوق الإنسان — إلى العلم بكلّ

شيء والقدرة على كلّ شيء .

ذلكم هو الهدف . وهو ، من غير شكّ ، بعيد المنال . إلاّ أنّه ليس بالمستحيل . إذ ليس من مستحيل في حياة تمتدّ ما امتدّ الزمان ، إلاّ إذا انقطع حبل الحياة وحبل الزمان . وذلك ما ليس يستطيع أن يصوّره فكر أو أن يتخيّله خيال .

ولو أن الأهداف كانت تدرَك بمجرّد تحديدها والتكلّم عنها لكانت الأرض غير الأرض والبشريّة غير البشريّة . ولكن ما من هدف يستطاع الوصول إليه إلاّ بالسعي والجدّ والعناء ، والسعي والجدّ والعناء تذهب كلّها هدراً ما لم يكن من خلفها فكر ثاقب وقلب مؤمن وإرادة قحّامة .

وإني لأسأل — والعالم اليوم من التشويش والقلق والفوضى حيث تعلمون :

مَن ترى سيتولّى أمر تثقيف فكر الإنسان وقلبه وإرادته وتوجيهه إلى هدفه ؟

لقد حاول الدين ذلك . فما أفلح أيّ دين إلاّ في فجر دعوته ، وإلاّ إلى حدّ . ثمّ اقتعد جانباً من مضمار الحياة الفسيح واكتفى بالتهديد والتنديد والترديد من غير أن تكون له حماسة الفكر المتوقّد ، وحرارة القلب المؤمن ، وصلابة الإرادة القحّامة .

وأنجبَ الدين المدرسة . فما إن شبّت عن الطوق حتى

تنكّرت لوالدها ثمّ راحت تناصبه العداء بالكثير من الادعاء والخيلاء . وليس من ينكر اليوم على المدرسة القوّة الهائلة التي لها في تسيير مجاري الحياة البشريّة . وإنّها لمكابرة أن ننكر مثل تلك القوّة على الدين . فالدين والمدرسة هما الركنان المتينان اللذان تقوم بهما وعليهما مدنيّة الإنسان وحضارته . ولكنّها مدنيّة متداعية وحضارة تكاد تحتضر . ولماذا ؟ لأنّ بين الدين والمدرسة ما يشبه الجفاء . فالدين قد نسي رسالته . والمدرسة ما اهتدت بعد إلى رسالتها .

ولو أنّ الأديان خفّفت من غلوائها في احتكار الحقيقة ، وفي عبادة الحرف دون الروح ، وفي نزاعها الظاهر والخفيّ بعضها ضدّ بعض ؛ ثمّ لو أنّها تضافرت جميعها على النهوض بالإنسان إلى ما فوق الحيوان لا طمعاً بجنّة تُرجى أو هرباً من جهنّم تُخشى ، بل امتثالاً للمشيئة الكلية التي ما أودعت الإنسان أشواقاً لاهبة إلى المعرفة والحريّة إلاّ لتبلغ به سناء المعرفة وفضاء الحريّة ؛ ولو أن المدرسة ما بالغت في حشو دماغ الطالب بشتى المعلومات لتترك فكره قفراً ، وإرادته شلواً ، وقلبه سباخاً ؛

أقول لو أن الدين والمدرسة تفاهما على هدف الإنسان من وجوده ثمّ تعاونا على الوصول به إلى ذلك الهدف لأصبحت أرضنا سماء وأصبح عالمنا جنّة تحسدنا عليه حتى الملائكة .

الشّبابُ الحائرُ

يقوم الكون بكلّ ما فيه ومن فيه . فما من كائن حيّ أو غير حيّ ، عاقل أو غير عاقل ، منظور أو غير منظور إلا يؤدّي قسطه من العمل في بناء ما يجب بناؤه ، وترميم ما يحتاج إلى الترميم ، وهدم ما يستدعي الهدم في الهيكل العجيب الذي ندعوه العالم أو المسكونة . ونحن لو شئنا أن نرتّب الكائنات من حيث قيمتها أو أهميّتها في حياة الكون لما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . إذ ليس ما يكفل لنا أن ما نضعه اليوم في رأس القائمة لن يصبح غداً في أسفلها . ذلك لأنّنا نؤخذ بالمظاهر ، والمظاهر متقلّبة أبداً . . فهي أبداً خدّاعة . ومن ثمّ فنحن لا نستطيع أن نقيم لأيّ شيء وزناً في ذاته . وإنّما نحكم على الأشياء بنسبة ما تسبّبه لنا من نفع أو ضرر ، ومن لذّة أو ألم . والنفع والضرر واللذّة والألم أمور نسبيّة ومرهونة بظروف الزمان والمكان . فما يبدو لنا ضرراً في هذه الآونة من الزمان وهذه النقطة من المكان ، قد ينقلب نفعاً في آونة أخرى ومكان آخر ، مثلما تنقلب اللذّة ألماً والألم لذّة .

إلاّ أنّنا ، وإن تعذّر علينا ترتيب الكائنات ترتيباً لا يتغيّر ولا يتبدّل من حيث قيمتها وأهميتها في حياة الكون ، نرانا مكرهين بطبيعتنا على المقارنة والمفاضلة . فمرتبة الشمس عندنا غير مرتبة القمر ، وأهميّة البحر غير أهميّة الساقية ، وقيمة الإنسان غير قيمة اليربوع .

وعلى هذا القياس نرانا نؤثر الطفولة على الكهولة والشيخوخة . ونؤثر الشباب على الطفولة والكهولة والشيخوخة معاً . وما ذاك لأن الشباب يغني عن الطفولة والكهولة والشيخوخة ، أو يقوم مقامها . . . ذلك قول يكذبه الواقع ويدحضه العقل والوجدان . بل لأن الشباب يجمع بين الكثير من صفات الأدوار الثلاثة . ففيه شيء من طهارة الطفولة دون استسلامها ، وشيء من صلابة الكهولة دون حذرها ، وشيء من حكمة الشيخوخة دون عجزها .

* * *

والشباب ، إلى ذلك ، سريع الانطباع ، سريع التأثر ، سريع الحركة . وهو مؤمن بقلبه ، وإن كفر لسانه بكلّ ما في السماء والأرض من أرباب . وهو طاهر بفكره ، وإن تمرّغ بجسده في حمأة من الموبقات . وهو بنّاء بخياله ، وإن أمعنت يداه في الهدم . أمّا القوّة الهائلة التي لا يملكها إلاّ الشباب ، فهي قوّة الانطلاق أو الاندفاع . فأكره ما يكرهه الشباب

هو القعود أو الركود ثمّ السدود والحدود من أيّ نوع كانت . وأحبّ ما يحبّه هو الاندفاع والاستطلاع وتحطيم السدود والقيود . حتّى لتكاد الحريّة تكون معبوده الأوحد . وهو يعبدها آناً باسم خالق السماء والأرض ، وآناً باسم معشوقة من لحم ودم ، وآونة باسم الجمال ، والحقّ والعدل . والمعرفة ، والإخاء ، والمساواة وما إليها .

لقد أقامت البشريّة أهدافاً كثيرة لنفسها منذ أن استوطنت الأرض حتّى اليوم . إلاّ أن الهدف الذي كان له أبعد الأثر في حياتها ، وفي حياة الشباب على الأخص ، هو الحريّة — ذلك الهدف الذي أُريقت في سبيله أنهار من الدماء الزكيّة وجلّها من دماء الشباب . فما الأديان : على كلّ ما فيها من تفاوت من الطقس والعقيدة : غير وعود للإنسان بالانعتاق من ربقة الأرض وشهواتها ، ومن الموت ومخاوفه وأوجاعه . والأديان قامت على أكتاف الشباب ؛ وانتشرت في الأرض بحرارة الشباب ، واغتذت وارتوت بلحوم الشباب ودمائه . كذلك قل في المعرفة بكلّ أصولها وفروعها ، فالشباب كان وما برح في طليعة المفتّشين عنها ، والعاملين على جمع شتاتها ، والسهر عليها من التلف والاندثار . وما ذاك إلاّ لأن المعرفة هي الطريق المؤدّي إلى الحريّة ، والحريّة هي الطريق المؤدّي إلى المعرفة . فحيث لا معرفة لا حريّة ، وحيث لا حريّة

لا معرفة .

ذلك كان شأن الشباب حتى الحرب الأخيرة التي ودّعناها فما أطاقت عنّا بعاداً . وراحت تبذر بذورها في قلوبنا وأفكارنا وأرواحنا . وإذا بالأرض بيت للمجانين ، وإذا بالناس قد اختلط حابلهم بنابلهم وانبروا ينبحون بعضهم على بعض ، ويكشّرون بعضهم لبعض ، وينهشون بعضهم بعضاً ، وينفثون في الجوّ سموم أحقادهم ومطامعهم وشتائمهم ومثالمهم ، وأكاذيبهم وترهاتهم . ثمّ يعملون الليل والنهار على محو آخر أثر للحريّة وللمعرفة في حياتهم . ولا يخجلون من أن يجاهروا بأنّهم يعملون ما يعملون « دفاعاً عن الحريّة والمعرفة » ! . . إنّها المأساة التي تتضاءل إزاءها الزلازل مهما بلغت فظاعتها ، والأوبئة مهما اشتدّ فتكها ، والمجاعات مهما تمادت شراستها .

* * *

في مثل هذا الجوّ المحموم والمسموم يعيش شباب اليوم ، فما يعلم ماذا يعمل وأنّى يتّجه . إنّه لفي حيرة ما بعدها حيرة . فمن ورائه حرب أُثيرت باسم الحقّ والعدل والحريّة ولكنّها انتهت بأن أجهزت ، أو كادت ، على الحريّة والعدل والحقّ . ومن أمامه شبحٌ هائل يبعث الرعب في النفس ، ويخطف النور من العين ، ويخنق الإيمان في القلب ،

ويشلّ الفكر والخيال والعضل . . . هو شبح الحرب العالميّة الثالثة التي أصبحت طلائعها على الأبواب ، والتي بوحيها يتكلّم كلّ ذي سلطان في الأرض ، وبوحيها تتحرّك أقلام الصحافيّين وألسنة المذيعين ، وبوحيها تدور المعامل والمتاجر ، وتجري الأساطيل في البحر والجوّ ، ويساق الشباب رغم أنفه إلى الثكنات العسكريّة حيث يدرَّب على أحدث أساليب التقتيل والتنكيل والتدمير ، وحيث تخدر أحاسيسه الإنسانيّة وتطلق من عقالها كلّ غرائزه الحيوانيّة ، وحيث تكفّن ميوله الطبيعيّة إلى الحبّ والجمال والحريّة بأكفان من البغضاء والشناعة والعبوديّة .

لهف قلبي على هذا الشباب الحائر ما بين أمسه وغده ، والواقف كالمشدوه بين حرب دنّست أقداسه ، وحوّلت أعراسه مآتم ، وحرب تنذر بأن تقتلعه بجذوره من تربة الحياة وأن تصهره في أتونها الهائل فلا تبقي منه ومن آماله بالمستقبل وإيمانه بجمال الحريّة والمعرفة إلاّ على الرماد .

لهف قلبي على هذا الشباب المتشوّق إلى الحياة ، المتوثّب إلى الحريّة ، المتعطّش إلى المعرفة ، المتطلّع إلى الحقّ والعدل والجمال ، يكفر بالحياة والحريّة والمعرفة وبالحقّ والعدل والجمال لأن الذين في أيديهم مقاليد حياته قد سدّوا عليه جميع المنافذ إلى مُثُله العليا وأعاضوه عنها مُثُلاً زائفة .

لقد أعاضوه عن الحياة موتاً ، وعن الحريّة عبوديّة ، وعن المعرفة جهلاً ، وعن الحقّ باطلاً ، وعن العدل عسفاً ، وعن الجمال بشاعة . وذلك بقوّة الدعاية الّتي بلغت من الخبث والدهاء حدّاً لا يستحيل عليها معه مسخ جميع القيم الإنسانيّة وتزييفها وجعل أسفلها أعلاها وأكدرها أصفاها . حتى بات الشباب وهو لا يدري ماذا يصدّق ممّا يسمع ويقرأ وماذا لا يصدّق ، وبمن يثق من زعمائه وبمن لا يثق ، وبماذا يعلق آماله ، وعلى أيّ الأسس يشيد حياته .

وما قولك في بشريّة شبابها في حيرة من أمره ومن حياته ؟ إنّها لبشريّة حائرة . وما هذه المخاوف الّتي تساورها فتدفعها إلى الحرب دفعاً هو الجنون بعينه إلاّ الدليل القاطع على حيرتها من أمرها ومن حياتها . ولو أنّها كانت على هدى ، أو شبه هدى ، من هدفها لما تبلبلت أفكارها وأحاسيسها كلّ هذا التبلبل ، ولما انقسمت إلى معسكرين يتراشقان السباب والشتائم ويتهم أحدهما الآخر بأنّه وحده المسؤول عن كلّ ما في الأرض من بلبلة وقلق وخوف واندفاع في ركاب الحرب . ثمّ يدّعي كلٌّ منهما أنّه وحده يناضل عن الحقّ والحريّة ويبني مستقبلاً زاهراً للبشريّة .

في هذه الغمرة من الفوضى المادّيّة والروحيّة ، ومن القلق الفكري والقلبي ، ليس يليق بالشباب أن يقنع من حياته

بالحيرة ، ولا أن يستعيض عن صوت الحياة في داخله بأصوات الدعاية الخبيثة الخدّاعة . فالحيرة إذا طال مداها انقلبت شللاً ، والدّعايات إذا لاقت بذورها الخبيثة تربة في الفكر والقلب خنقت كلّ ما فيهما من بذور صالحة .

ألا فليعلن الشباب على رؤوس الأشهاد أنّه يربأ بقلبه المحبّ أن تحوّله الدّعايات والمخرقات إلى قاذورة من البغضاء ، ويربأ بأشواقه السماويّة إلى الحريّة أن تنقلب نيراناً جهنّميّة تلتهمه ، وتلتهم إخواناً له في النّاسوت ما عرفوه ولا آذوه ولا هو عرفهم أو آذاهم . ويربأ بفكره الذي هو دليله إلى النور أن يصبح دليلاً يقوده إلى الظلمة . ويربأ بحياته أن يقدّمها قرباناً لرصاصة يطلقها عليه ، أو قنبلة يقذفه بها إنسان مثله أكره على ذلك إكراهاً . فهو ما أُعطي الحياة إلاّ ليحياها ، وإلاّ ليفهم معناها فيبلغ بها في النهاية كلّ ما يشتاقه من خير ومن معرفة ومن حريّة . وقطّ ما أُعطيها ليتخلّى عنها لسواه يتصرّف بها على هواه ، وعلى الأخص في سُبل حبلى بالإثم والشناعة والموت الزؤام .

أجل . إنّه لمن حقّ الشباب أن يعلن إرادته في الحياة . فهي ميراثه الأثمن والأقدس . وإنّه لمن الواجب عليه أن يخرج من الحيرة والتردّد إلى اليقين والانطلاق . وإن لم يكن بدّ من الحرب فليشهرها حرباً ضروساً على الحرب ، وعلى

كلّ ما يثقل خطاه ، ويشلّ عزيمته في اقتحام المجهول ، وتذليل العَصيّ ، وتقريب القصيّ . فما من لذّة تضاهي لذّة الظفر بمعرفةِ ما كنتَ تجهل ، ولا من غلبة توازي الغلبة على قوّة كنت عبدها .

تلك هي رسالة الشباب في الأرض، ولن يؤديها غيره . . . وإن هو أخفق في تأديتها فقل على البشريّة السّلام . ولكنّه لن يخفق ما دام له إيمانه بنفسه وبالحريّة وبحقّه في الحياة .

ستستريحون يوم أستريح

على شاطىء البحر الذي لا يستريح ، جلس أربعة من الناس يستريحون في ظلّ صخرة سامقة كست الأمواج أسفلها بالطحلب ، ومدّت أمامها بساطاً من الرمل الناعم البرّاق الشبيه بالتبر . وكان الأربعة عائلة مؤلفة من والد ووالدة في متوسّط العمر ، وابن في الخامسة والعشرين ، وابنة في العشرين . وقد خرجوا منذ الصباح في سيارتهم الفخمة يبتغون تبديل الهواء والترويح عن النفس في طريق واسع جميل يرافق البحر مسافات بعيدة . وعندما بلغوا تلك النقطة من الطريق ارتأت الابنة — وكانت تقود السيارة — أن يتناولوا غداءهم في ظلّ تلك الصخرة . وما إن استقرّ بهم المقام حتى راحوا يخرجون من سلال وحقائب حملوها من السيارة أصنافاً من اللحوم الباردة والجبن والتوابل والفواكه والحلوى والمشروبات الساخنة والمثلّجة ، فيوزّعونها في صحاف وكؤوس ، ثمّ يرتّبونها بمنتهى الأناقة على سماط من الورق الأبيض النقيّ . . .

— عجّلوا ، عجّلوا ! أكاد أموت جوعاً . . . بل أكاد

آكل الحجارة لفرط ما بي من قابليّة ما أحسست مثلها قطّ في حياتي .

قالت الابنة ذلك وتناولت قطعة كبيرة من الروستو ووضعتها بين قطعتين من الخبز ، وراحت تلتهمها بنهم الذئب الذي يوشك الجوع أن يودي بحياته .

الوالدة : برافو ! .. هي المرّة الأولى أسمعك تشكين فيها فرط القابليّة بدلاً من قلّتها . كلي ... كلي يا حبيبتي ... ألف صحّة وصحّة .

الوالد : أرأيت يا ابنتي ما يفعله قليل من الحركة في الهواء النقيّ ؟

الوالدة : بل قليل من صرف الفكر عن مخرقات ماركس وأنجلس ولينين وستالين ومن لفّ لفّهم ...

الابنة : أمّي ! رجوتك لا تنغصي عليّ غدائي ... فسأبقى في وادٍ وتبقين في وادٍ .

الوالدة : أما أنّك نغّصت على أمّك حياتها باعتناقك مبادىء الشيوعيّة الهدّامة ، فما ذلك عندك بأمر ذي بال .

الابن : تعرفين يا أمّاه أنّني اشتراكي لا شيوعي . وأنا ، مع ذلك ، أنتفض اشمئزازاً كلّما طرقت أذني هذه الأراجيف الصبيانيّة التي تنعت الشيوعيّة بالهدم دون البناء . لو كانت الشيوعيّة التي تمقتينها تهدم ولا تبني لآن لها أن تهدم نفسها .

ولو كانت الديمقراطيّة الّتي تدينين بها تبني ولا تهدم لما خشيت على نفسها من الشيوعيّة ، بل لما نبتت منها الشيوعيّة الهدّامة . أفلا قلت لي ما الذي تهدمه الشيوعيّة وليس جديراً بالهدم ؟

الوالدة : إنّها تهدم الدين ، والدولة ، والعائلة ، والوطن ، والحريّة . . . فكأنّها تقوّض جميع الأسس الّتي يقوم عليها المجتمع البشري .

الابن : أمّا الدين فإذا كان مردّه – كما تؤمنين – إلى قوّة منها كلّ شيء ، وفيها كلّ شيء ، وإليها كلّ شيء . . . فما إخال الشيوعيّة بقادرة على هدمه ، وإن هي تمكّنت من هدمه كانت أقوى منه ، وكان حريّاً بالهدم .

الابنة : لا فضّ فوك يا أخي . . . زدها من مثل هذا العيار .

الابن : وأمّا الدولة فالشيوعيّة لا تمحوها بل تثبّتها على أسس جديدة هي أسس المنفعة العامّة بدلاً من المنفعة الخاصّة .

الوالدة : ولكنّها دولة تديرها حفنة من الناس، على عكس الدولة الديمقراطيّة الّتي تنشأ بإرادة الكلّ وتدار بإرادة الكلّ لمنفعة الكلّ .

الابنة : بإرادة الأكثريّة يا أمّاه . . . ألا تقبلين منّي هذا التصحيح ؟

الوالدة : قبلت . . . بإرادة الأكثريّة .

الابن : ومن هم الأكثريّة في أيّة دولة من دول الأرض ؟ هم الفلاّحون والعمّال وذوو المهن الصغيرة الحقيرة . . . أترضين أن تحكمك هذه الأكثريّة ؟

الوالدة : معاذ الله . . . بل أفضّل أقلّيّة مستنيرة على أكثريّة جاهلة .

الابن : وذلك ما تفعله الشيوعيّة بالتمام عندما تسلّم مقاليدها لحفنة من الرجال الممتازين بدرايتهم وحنكتهم وإخلاصهم وتفانيهم في سبيل المجموع . إن الجيوش لا تنظّمها وتدرّبها وتسيّرها غير أقلّيّة ضئيلة من الضبّاط والقوّاد . منذ أقدم العصور والأقلّيّة تحكم الأكثريّة . وما الفرق بين حكم وحكم إلاّ في أقلّيّة تحكم لمنفعتها وأقلّيّة تحكم لمنفعة الجميع . أما الانتخابات النيابيّة فليست سوى مخدّرات للأكثريّة وذرّ رماد في عيونها .

الابنة : عافاك يا أخي ، عافاك . . . زدها من هذه البضاعة.

الوالدة : لا بل زيديني أنت من بضاعتك عن العائلة والوطن والحريّة الفرديّة .

الابنة : لا قيمة للفرد في ذاته . . . لأنّه لا يستطيع وحده أن يخلق شيئاً . لا لغة ، ولا فنّاً ، ولا صناعة ، ولا دولة ، ولا ديناً . ولا هو يستطيع أن يحدّد ذاته . . . فقيمته إذ ذاك

قيمة الصفر ، ولكن الصفر يصبح ذا قيمة عظيمة بين أرقام كثيرة . وإذ ذاك فأيّ بأس على الفرد إذا هو جعل حريّته رهناً بحريّة المجموع ، فأضاع نفسه في المجموع ليجدها فيه ؟ وإذ ذاك فالعائلة الصغيرة يجب أن تذوب في العائلة الكبيرة التي هي الإنسانيّة . والوطن الأصغر ينبغي أن ينصهر في الوطن الأكبر الذي هو الأرض . وذلك ما تسعى إليه الشيوعيّة .

الوالدة : هذا كلام قد يقنع غيري من الأمّهات . . . أمّا أنا فلن أتخلّى لدولة أو غير دولة عن واجباتي كأمّ وعن عواطفي نحو ابني وابنتي وإن يكونا خصمين لي في العقيدة .

الابن : ما من خصومة بيننا يا أمّي . . . وكلّ ما في الأمر أنّك تطلبين سعادتنا وراحتنا من باب ، ونطلب سعادتك وراحتك من باب آخر .

الوالدة : بئست السعادة تُفرض عليّ فرضاً . . . أنا سعيدة بما أملك وبما أعتقد ، وبدولة تتيح لي أن أملك ما أملك وأن أعتقد ما أعتقد . خير لي أن أموت جوعاً من أن يملي عليّ أحد من الناس أفكاري وأعمالي ، ويحرمني الحقّ في أن أملك أرضاً أو بيتاً وأن أتصرّف بهما كيفما أشاء .

الابن : ليست الحريّة يا أمّي سوى اسم « مبهم » لمسمى أشدّ إبهاماً . ألعلّك أمّي وأنا ابنك باختيارك واختياري ؟ أم لعلّك جئت هذا العالم وستمضين منه بمحض إرادتك ؟

الابنة : بل هي الحريّة أن يرث والدي عن والده أرض سباخاً تحتوي أحشاؤها بحيرة من البترول فيصبح ذا ثروة طائلة من بعد أن كان عاملاً فقيراً ! ليست الأرض وما على سطحها وفي جوفها ملكاً لأحد من الناس ، بل هي ملك الناس أجمعين .

الابن : أجاريك إلى هذا الحدّ لا أبعد . فالكنوز الدفينة في الأرض يجب أن تكون ملك الدولة التي تمثّل المجموع ومثلها وسائل الإنتاج والنقل والتنوير والريّ وسائر المنافع العامّة . فهذه حرام أن تبقى نهباً لجشع الأفراد والشركات الاستثماريّة . أمّا الملكيّات المحدودة من دار وعقار ومنقولات فمن الخير أن تبقى . لأن في بقائها ضماناً لاستمرار الدولة الاشتراكيّة . إذ لا يصحّ أن نجرّد الإنسان من غرائزه الفرديّة لنخلق فيه غريزة اشتراكيّة . وغريزة التملّك من أقوى الغرائز في الإنسان ، فلا يجوز أن نقضي عليها . بل الأفضل أن نوجّهها توجيهاً اشتراكيّاً . أمّا العقيدة الدينيّة فليس من السهل — بل ليس من المستحسن — استئصالها . ولكن من الضروريّ الحدّ من أذاها عندما تتصلّب وتتعصّب إلى حدّ أن تهدّد وحدة الدولة وسلامتها .

الوالدة : أراك أكثر تسامحاً من أختك . . .

الابن : أما قلت لك إنني اشتراكي ؟ والاشتراكيّة هي الطريق الوسط ما بين الرأسماليّة والشيوعيّة . أمّا أختي

فشيوعيّة ، ولكن بالقول لا بالفعل . ولو جاءها الآن زمرة من الرفاق الشيوعيّين فاحتجزوا سيارتها باسم الدولة ثم استأثروا بهذا الزاد الطيّب الذي أمامها وعوضوها عنه رغيفاً يابساً وبصلة ...

الابنة : كفاك . كفاك ! لقد بتّ أخشى إذا أنت تماديت في حديثك على هذه الوتيرة أن تفسد في النهاية دفاعك الجميل في البداية . دعونا من الجدل ، وهيّا نأكل . . . فالجوع لا يرحم .

الوالد : أحسنت ، أحسنت . . . الجوع لا يرحم .

الابنة : كدنا ننساك يا أبي ، ولكنّك صبور وحليم . . . أرجو أن لا يكون صدرك الرحب قد ضاق بثرثرتنا .

الوالد : ما ضاق يا ابنتي ، ولن يضيق بإذن الله . فمن حسنات هذا الصدر أنّه يتّسع لكلّ نزعة وبدعة . ما هي المرّة الأولى تصطرع فيها المذاهب البشريّة ، ويختلف الناس في تفسير القصد من وجودهم وفي تدبير شؤونهم على الأرض . وحتى اليوم ما قُدّر لمذهب واحد أن يسود العالم . ذلك لأن في الإنسانيّة حيويّة غريبة تأبى الوقوف والجمود ، ولا تنفكّ تخلق الجديد من القديم طمعاً بالوصول إلى الراحة التي تنشد . وكلّ جديد لا بدّ يمسي قديماً يوماً من الأيّام . ومن ثمّ فلو صحّ أن مذهباً واحداً يحمل الخلاص كلّ الخلاص للناس لما اقتبلته الجماهير بعين الحرارة والحماسة . لأن الجماهير بطيئة الفهم والحركة ، تثيرها الزعازع من حين إلى حين

ولكنّها قلّما تغيّر من جوهرها أو تفلح في إطلاقها من حظائر تقاليدها الضيّقة وأوهامها الموروثة وغرائزها الحيوانيّة . إنّ الجماهير كانت ، وما برحت ، مقابر للمذاهب .

الابنة : إذن أنت ترحّب بالشيوعيّة كمذهب جديد . . .

الوالد : أرحّب بكلّ مذهب يحمل إلى الناس وعوداً بالخلاص من أعدائهم . . . أوَتدرين من هم أعداء الناس ؟

الابنة : من ؟

الوالد : هم الجوع ، والبرد ، والفقر ، والجهل ، والذلّ ، والجور ، والوجع ، والموت وكلّ ما يمشي في ركاب هذه من خوف ، وجشع ، ورياء ، وحقد ، وبغض ، وفحش ، وإثم مستور أو مكشوف .

الابنة : أليس أن الشيوعيّة تعد باستئصال هذه الشرور كلّها ، أمّا الديموقراطيّة فتحتضنها وتغذّيها وتحنو عليها ؟

الوالد : لستُ من السذاجة يا ابنتي بحيث أؤمن بأن في استطاعة أيّ مذهب أن يبر بأكثر من جزء ضئيل جدّاً من وعوده . ولا أنا أطلب من أيّ مذهب فوق ذلك . والذي أخشاه على المذاهب ومنها هو ادّعاء كلّ منها بأنّه وحده يملك جميع مفاتيح الخلاص . فهذا الادّعاء ينتهي حتماً إلى حمّى من التعصّب والكره والغطرسة . وتلك الحمّى تنتهي إلى فقدان الوعي ، فالهذيان ، فالحرب . فتكون النتيجة أن

الطبيب يقضي على عليله بالموت تحت ستار الدفاع عن صحته ورفاهيته . وهكذا المذاهب في تطاحنها تبلو الناس بالفناء والدمار بحجّة أنّها تقودهم إلى البقاء والعمار . ألا بئس الطبّ وبئس البقاء والعمار ! !

الابن : وهل يكون عمار بلا دمار ، أو حياة بلا موت ؟

الوالد : لا يا ابني . ولكن بيتاً تبنيه بيدك ثمّ تهدمه بيدك ، هو غير بيت تبنيه أنت فأهدمه أنا . لا لغاية نبيلة بل لمجرّد الانتقام والنكاية والتشفي . وذلك ما تفعله الحرب بالتمام . إنّها تميت وتهدم انتقاماً ونكاية وتشفياً ، لا حبّاً وتسامحاً وغيرة . ولذلك كانت الحرب أكبر بلايا الناس ، وكانت المذاهب التي تؤمن بالحرب وسيلة إلى السّلم والحريّة والحياة خناجر وحراباً في قلب السّلم والحريّة والحياة .

الابن : ولكنّك لا تنكر يا أبي أن الحروب جاءت البشريّة بالكثير من المنافع . . .

الوالد : أجل . ولكنّها منافع غير التي كانت البشريّة ترمي إليها من وراء حروبها . فالناس ما تعمّدوا يوماً من الأيّام بلوغ تلك المنافع بحروبهم . بل هي جاءتهم نتيجة عفويّة لتفاعل قوى فوق قواهم . فلا يليق بنا أن ننسى — ونحن في حضرة هذا البحر — أنّه يتحرّك أبداً بإرادة غير إرادتنا . ومثله هذه الأرض وما فيها وما عليها ، وهذه الشمس وكلّ

ما خفي عنّا وما بان لنا من الأكوان . فنحن إن نكن مخيَّرين في اليسير من أمورنا فلا نزال مسيَّرين في الكثير . والقوى التي فوق قوانا هي التي تستخرج لنا الخير من شرورنا حفاظاً علينا من الاندثار . وهي تحافظ على بقائنا لغاية تعرفها ونجهلها . ونحن لن نصبح أسياد أنفسنا وأسياد الكون حتى نفهم تلك القوى ونماشيها بإرادتنا لا قسراً عنّا . وإلى أن يكون لنا ذلك يحسن بنا أن نقلّل من غرورنا وغطرستنا ، وأن نكتفي بما لدينا من خير ، وأن نسعى بكلّ ما نملك من وسائل شريفة للحصول على خير أوفر وأعمّ حتى يكون لنا الخير الأكبر . ألا وهو خير المعرفة الكاملة التي بها — لا بغيرها — نصبح أسياد أنفسنا وأسياد المسكونة .

لنتمذهب يا ابني . . . ولكن من غير أن نتحمّ . ولنناضلَ ولكن من غير أن نَغرق نحن ونُغرق الذين نناضل من أجلهم في بحور من الدمع والدم . وإذا كانت المعرفة لا تُنال إلاّ بالدمع والدم فلنبذل لها بسخاء من دموعنا لا من دموع سوانا ، ومن دمائنا لا من دماء الغير .

* * *

وطال بالأربعة المقام ، وتمادى بهم الحديث. وكان البحر في كرّه وفرّه يخاطبهم بغير انقطاع فيقول لهم في جملة ما يقول : « ستستريحون يوم أستريح » . ولكنّهم ما كانوا يسمعون !

هجم الربيع

هجم الربيع !

بهاتين الكلمتين حيّاني أمس أحد الجيران . وكانت أجمل تحيّة . فقد حاصرنا الشتاء في هذه السنة حصاراً طويلاً قاسياً استنفد كلّ ما اختزنّاه من الوقود . حتّى أصبح الناس ، عند التلاقي ، لا يتساءلون عن الحال والعيال ، ويتساءلون عن الفحم والحطب : أباقٍ عندكم حطب ؟ أيابس حطبكم أم أخضر ؟ — لقد سئم الجميع روائح الفحم والدخان ، وسئموا حتّى زغاريد النار في الحطب . وقد اشتاقت عضلاتهم إلى الحركة والعمل ، وملّت أبصارهم التطلّع إلى الجدران والسقوف ، وباتوا يتبرّمون بالأمطار والثلوج والعواصف تنقضّ عليهم من سماء غضبى لا يلطّف من غضبها شعاع شمس أو بسمة قمر أو غمزة نجمة .

وأخيراً أطلّت الشمس علينا من فوق صنّين لتتولّى بذاتها قيادة الهجوم المبارك — هجوم الربيع . فكان البردُ أوّل ضحاياها . وجاء دور الثلج — حليف البرد الأعند والأشدّ . وها هو تنهار عزيمته ، وتتصدّع صفوفه ، ويثخن صدره

الجراح ، ويميع قلبه فينحدر من الأعالي شلالات تدفع شلالات . وفي انحداره من الأعالي واندفاعه نحو البحر يأتيك بالعجيب من الأغاني . فكأنّه ، وهو الهارب من الميدان ، يعدّ الهرب ضرباً من البطولة فيُسمعك من الأهازيج ما لا تملّه أذنك ولا ترتوي منه روحك .

وبانهزام جحافل الثلج جحفلاً إثر جحفل تنكشف عورة الجبال من حولنا ساعة تلو ساعة ويوماً بعد يوم . ففي جلابيبها البيض تبدو خروق لن تجد لها راتقاً . وهذه الخروق تتّسع وتتّسع إلى أن تتقلّص الجلابيب في خلال شهور معدودة فلا يبقى منها خيط أو سريدة .

وبانهزام البرد والثلج تتنفّس أرضنا الصعداء ويأخذ وجهها الأجرد يكتسي بزغب من الخضرة الحية . وهذه الخضرة الحية لا تلبث أن تختضب بجميع ألوان قوس السحاب عندما تنبري الأزاهير من مخابئها وتنتثر على ضفاف السواقي ، وفي الحقول والكروم والبساتين ، وعلى جوانب الطرق ، وحتّى في شقوق الصخور . أما اتّفق لك أن رأيت « بخور مريم » يرنو إليك بطرفه الناعس من شقّ صخرة ؟

وإذ تتنفّس أرضنا الصعداء يُقبل عليها عشّاقها بالمعول والمجرفة ، وبالرفش والمحراث . وهو ضرب من الغزل والبوح بالشوق ما أتقنه ولا فهم بعيد مغازيه ومراميه غير

عشّاق الأرض . ويسكرك منظر السواعد المفتولة تقلب التراب رأساً على عقب . مثلما تسكرك رائحة التراب البكر يحملها النسيم مضمَّخة بأنفاس الأرض الحنون ومحبّتها وجودها. وترى الناس ذكوراً وإناثاً ، كباراً وصغاراً ، يكبّون على التراب البكر ليودعوه بذار آمالهم بالموسم الآتي – بذار اللوبياء والبطاطا والبندورة والحمّص وغيرها وغيرها من عشيرة البقول والحبوب . وترى الشمس تباركهم من فوق وتسكب عليهم فيضاً من النُّور والدفء والعافية .

إنّه لحديث يلذّ ويطول – حديث الأرض وعشاقها في استقبالهم لطلائع الربيع في الجبال . فما دامت الشمس تشرق سافرة وتغرب سافرة دمت ترى الناس جماعات وفرادى يسبقونها إلى حيث تدعوهم الأرض ونبات الأرض وقلّما يأوون إلى مساكنهم إلاّ مع الغروب أو بعد الغروب . ومن كان منهم يملك حقولاً أو جنائن أو كروماً في الجرود – ولا أقول « الصرود » – تراهم يسبقون الفجر إلى أملاكهم وفي كتف كلّ منهم معوله وفي يده « زوادته » أو منجله . والذين يترتب عليهم الحرث تراهم يسوقون أمامهم أبقارهم وعلى أكتافهم محاريثهم ، وفي آذانهم هدير الأمواه المتسابقة إلى البحر ، وفي عيونهم بريق الهمّة المكبوتة وقد أفلتت من الكبت ، وفي أنوفهم عبير الأرض وقد ارتفع عن صدرها

كابوس الشتاء . لقد بات الناس ، كالنحل ، لا يعرفون الهدوء في النهار ولا يستريحون إلاّ في الليل : هذا ينكش ، وهذا يحرث ، وهذا يزرع ، وهذا يقلّم ، وذلك يرمم ، والآخر يقطع حجارة في المقلع . فما من عاطل عن العمل غير الرُّضّع والعُجّز والمقعدين . أمّا الأحداث في سنّ الدراسة فتحس ، إذ تراهم يسيرون إلى المدرسة ، أن المدرسة أصبحت في أنظارهم سجناً ، وأفظع من سجن ، وأن الأودية والجبال تدعوهم إليها بأصوات أين من عذوبتها دندنة جرس المدرسة اللّعين .

حقّاً إن نداء الجبال في مثل هذه الأيّام لا يعانَد . فما استطعت اليوم إلاّ تلبيته والامتثال له . ولا دريت أيّة قوّة انتشلتني من بين كتبي وأوراقي وحملتني شرقاً — وصعوداً — نحو صنّين .

ما هي إلاّ دقائق حتى وجدتني واقفاً أمام نجاصة بريّة (أأقول « كمثرى » بريّة ؟) على جانب الطريق أتأمّل أغصانها المهشّمة وقد أخذت ثغورها تفترّ عمّا يشبه الزمرد . ومن فوق الزمرد قد بدت حبيبات بيض هي براعم الزهر ، توشك أن تتفتّح عن بهجة بيضاء معطّرة من قماقم الآلهة . أيّة فتنة هي خضرة الربيع عند بزوغها من أخدارها الشتويّة ! ومن ذا يستطيع وصفها في الأعشاب وفي أوراق الأشجار

بأنواعها – في الحور والدلب والصفصاف والبلّوط والزيزفون والتين والكرز والخوخ والتفّاح ، وغيرها من النباتات الكبيرة والصغيرة ؟

السلام عليك أيّتها النجاصة البرّيّة ، وليغفر الله للذين هشموا أغصانك عبثهم وطيشهم . ففي كلّ عام أمرّ بك لأتلقّى منك بشارة الربيع أيّام لا خضرة على شجرة ، ولا زهرة على فنن ، بعدُ . وحسبي منك تلك البشارة تنتشي بها الروح ويصفّق لها القلب .

وأتوقّف قليلاً على كتف الوادي لعلّ عينيّ تشبعان من منظر جداره المقابل لي والمرتفع مئات الأقدام عن القعر وقد بدت فيه رفاريف ضيّقة اكتست كلّها بالخضرة الطريئة . ولكن عينيّ النهمتين لا تشبعان من التطلّع إلى الصخور الشاهقة وقد خلع عليها الربيع جبّة من الجمال والجلال لا توصف ولا تصور . فأسلخهما عن وجه تلك الصخور سلخاً وأمضي أتوقّل أعلى فأعلى .

ها هي الساقية التي أحبّها كثيراً والتي وعدتني من قبل ، وتعدني اليوم ، أنّها ستولم لي بعد شهر وبعض الشهر – في أوائل أيّار – وليمة لا مثيل لها من عطر الزيزفون والنسرين والوزال . وما نكثت مرّة بوعد أو بعهد . وها هي تلك المرجة التي ستفرش لي عمّا قليل بساطاً من الأقحوان وشقائق

النّعمان . إنّها تبدو اليوم كما لو كانت في غفلة ولا غفلة أهل الكهف ، ولكنّني أعلم حقّ العلم وقد هجم الربيع ، أنّها ليست في غفلة ، وأنّها ، حتّى في هذه الساعة ، آخذة في حياكة بساطها البديع على منوال الشمس السحري وفي معمل الأرض العجيب .

مرحى مرحى ! فهذه سنونوة تتزلق بجناحيها السريعين على صفحات الفضاء من فوق رأسي . وفي انزلاقها رشاقة وخفّة ولباقة ونشوة تجعلني أتمنّى لو كان لي مثل جناحيها . ومن ثمّ فهي تغنّي ! وماذا عساها تغنّي وهي أولى بنات جنسها التي تلطّفت بزيارة جبالنا منذ شهور وشهور ؟ إنّها بالأكيد تغنّي : لقد هجم الربيع ! وإنّها لتبشّرني بأن قوافل المغنّين من الطير قادمة إلينا من الجنوب لتنضمّ إلى الجوقة التي تلازم هذه الجبال صيف شتاء . كالحسّون و « النقار » وأبي الحنّاء (بو الحن) وتلك الشادية العبقريّة التي لولا حنجرة لها تفوق حناجر العنادل قوّة وعذوبة لحسبتها فراشة قبل أن تحسبها عصفورة . ذلك لضآلة حجمها بين العصافير . أمّا اسمها — ويا خجلي من اسمها — فهو في لغتنا الجبليّة « دعويقة » !

ومرحى ثمّ مرحى ! فتلك الشوحة ورفيقها المدوّمان في الجوّ — هناك ، هناك — فوق تلك الصخرة الماردة حيث

يعتزمان أن يبنيا لهما عشّاً يتعذّر الوصول إليه إلاّ على الريح وعليهما ، هما كذلك من جنود الطليعة في هجوم الربيع ! وقدومهما شهادة لنا بأن الربيع لن يتوقف في زحفه ، وحاشا أن يعود القهقرى .

ومرحى ثمّ مرحى ثمّ مرحى لتلك الجوقة التي أيقظها الربيع من سُباتها العميق فراحت تبثه شكرانها نقيقاً صاخباً ، مزعجاً . ولكنّه لا يزعجني اليوم لأنّني أسمع فيه لحناً من ألحان الربيع . حتّى الضفادع تغدو كائنات محبّبة إلى القلب والأذن عندما تحمل إليهما بشائر الانعتاق من سجن الشتاء .

ويطول بي دربي ويستبق خيالي الواقع ، فأبصر جحافل الربيع تزحف وتزحف حتّى تدرك القمّة . ولن تدركها قبل أواخر حزيران ، وقبل أن تكسو السفوح والحقول والكروم والبساتين والأحراج بالأخضر والأحمر ، وبالأصفر والأبيض ، وبالبنفسجي والبرتقالي ، وسائر الألوان التي تنهل منها العين ولا ترتوي . أمّا العطور والأغاريد فيترنّح منها حتّى الهواء ، ويسكر بها الذين يشمّون بقلوبهم ويسمعون بأرواحهم . إذ ذاك يبلغ ربيعنا أشدّه ، ويبلغ زحفه الظافر الذروة ، فيتنازل للصيف عن القيادة ، وينام على غاره حتّى تدور الأرض دورة جديدة .

وتقترب الشمس من البحر . فأعود أدراجي وفي النفس

جوع إلى المزيد من بواكير الربيع ومباهجه . فأقول لها : أما عرفتِ بعدُ أن الربيع ليس للشبع ؟ فيكفيك منه نغمة وشمّة وضمّة وذكرى ، ثمّ يكفيك أن يقول لك الناس وأن تقولي للناس :

لقد هجم الربيع !

الأدب والدولة

ليس من ينكر أنّ للأدب أبعد الأثر في تكوين الأمم ، وتوجيه مجاري حياتها . إلاّ أنّه من الصعب ، بل من المستحيل ، تحديد ذلك الأثر وتقدير قيمته ومداه . ذلك لأنّه لا ينحصر في ناحية دون أخرى من نواحي الحياة البشريّة . فهو في العقل وفي القلب ، في الروح والجسد ، في الحقل والمعمل ، في السجن والمدرسة ، في دواوين الحكم وفي المعابد ، في المناجم والمصانع ، في المساكن والمتاجر ، في المتاحف والمكاتب ، في ساحات الوغى ودور الملاهي ، وفي كل ما يتصل بالإنسان من قريب أو من بعيد .

هذا كلام لا مجاز فيه ولا مغالاة ، بل هو دون الحقيقة بكثير ، وأضيق من أن يتّسع لكلّ وجوهها . وها هم الكتّاب والنُّقّاد والمؤرّخون ما ينفكّون يبحثون تأثير هذا الكاتب أو ذاك في حياة تلك الأمّة أو هاتيك بل في حياة الإنسانيّة بأسرها ، وبالأخص في الانقلابات الكبرى التي شهدتها البشريّة على مرّ العصور . وأقربها إلينا الثورة الفرنسيّة والأميركيّة والروسيّة . فهل من يجهل أن موليير وفولتير وروسو وهيغو وبلزاك كانوا

ملوكاً بغير عروش وكانوا أبعد أثراً في تاريخ بلادهم وتاريخ العالم من الجالسين على العروش في أيّامهم ؟ وأن بوشكين وتولستوي وتورغينيف ودوستويفسكي وغوركي كانوا أباطرة غير متوَّجين وأعظم سلطاناً من أباطرة الروس الذين عاصروهم؟ وأن غيتي وشيلّر ونيتشه وماركس كانت — وما تزال — لهم مملكة أين منها مملكة فردريك الكبير وغليوم الثاني ؟

ونحن لو جئنا نحلّل حياتنا في هذا الشرق العربي لما استطعنا الوصول إلى جذورها السحيقة ولما عرفنا إلى أيّ حدّ نحن مدينون اليوم بتفكيرنا الروحي والاجتماعي والسياسيّ، وبنُظُمنا وتقاليدنا ، لأدب الجاهليّة ولآداب العصور التي تلت الجاهليّة، ثمّ لآداب باقي الأمم من شرقيّة وغربيّة ، ثمّ للرسالات الدينيّة التي قامت بين ظهرانينا وانتشرت على ألسنة أسلافنا وأقلامهم وانطلقت إلى العالم من تحت سمواتنا . وها هما دولة المتنبي ودولة أبي العلاء ما تبرحان قائمتين في قلوبنا وأفكارنا وقد مرّ على تأسيسهما أكثر من ألف عام في حين أن دولة بني حمدان ودولة بني بويه أصبحتا من زمان خبراً من الأخبار .

وقُصارى القول إن للأدب دولة لا تدول وسلطاناً لا يحول. فما هي العلائق التي يحسن أن تقوم بينه وبين الدولة بمعناها المألوف من حيث هي هيئة منظمة وُجدت لتأمين الناس على

أرواحهم وأجسادهم ، وتسهيل سبل العيش لهم ، والسير بهم من الضنك إلى الفرج ، ومن القلّة إلى البحبوحة ، ومن المرض إلى العافية ، ومن الجهل إلى المعرفة ، ومن الضعف إلى القوّة ، ومن التفسّخ إلى الاتحاد ، ومن الفوضى إلى الاستقرار ؟

تلك هي الغاية المفروضة للدولة . ولولاها لما كان من مسوّغ لوجودها . ولهذه الغاية يتحمّل الناس في سبيل الدولة ما يتحمّلون من حدّ لحرّياتهم ؛ فيُلقون بمقاليدهم إليها تتصرّف بها حسبما تمليه حكمتها . فتشرف على مقدراتهم ، وتنظم مرافق حياتهم ، وتفرض عليهم المكوس والضرائب ، وتسنّ لهم القوانين ، وتقيم لهم شتّى الدوائر والمحاكم . فوزارة للزراعة ، ووزارة للصحة ، ووزارة للتجارة والصناعة ، ووزارة للتربية ، ووزارة للحربيّة ، إلى ما هنالك من وزارات تتعدّد بتعدّد مرافق الحياة وأهمّيّتها . ولكنّني ما سمعت ولا قرأت حتّى اليوم عن دولة أقامت وزارة للأدب . ولا عبرة بوزارات خلقتها أكثر الدول باسم الفنون الجميلة أو باسم الدعاية والنشر . فوزارة الفنون الجميلة تحصر جلّ همّها في المتاحف والآثار ، ووزارة الدعاية والنشر في بثّ الدعاية للدولة وسياستها ونشر ما يوافق غاياتها ، ومحاربة ما يخالفها . أمّا الأدب الصحيح الذي هو أعظم وأنجع دعاية للدولة التي تُنبته فحبله على غاربه ، يشقى ويسعد ، ويكبو وينهض ،

ويتقلّص ويمتدّ ، ويجوع ويشبع في معزل عن الدولة ، كأنّه ليس منها بخلّ أو بخمر ، أو كأنّه لقيط لا ينتسب إلى حيّ من الأحياء أو ميت من الأموات . ولكنه ما إن ينجب أديباً متفوّقاً يتألّق نوره ، ويسطو على الأفكار قلمه ، ويغزو آلاف آلاف القلوب بيانه ، ثمّ يبتلعه اللحد ، حتى تستيقظ الدولة من سُباتها ويروح رجالها يتنافسون في تمجيد ذلك الأديب ، وتروح مدنها تتسابق في إقامة الأنصاب لـه و « تشريفه » بتسمية شارع من شوارعها أو ساحة من ساحاتها باسمه .

أيكون ذلك من سوء طالع الأدب ؟ — لا وربّ الأدب ! بل هو من حسن طالع الأدب أن يحيا بحيويّة فيه لا في الدولة ، وأن يشقّ طريقه بساعديه لا بسيف ملك أو بسلطان برلمان ، وأن يمشي في طريقه مرفوع الرأس عزيز الجبين من غير أن يتوكأ على عصاً غير عصاه ، ويستنير بنور غير نوره ، ويستلهم إرادة غير إرادته .

هنالك أدباء ينعون على الدولة إهمالها للأدب . فهم يريدون منها أن « تشجّعهم » بابتياع قسم من نتاج أقلامهم ، أو بإسناد وظيفة إليهم ، أو بتسخير أبواق الدولـة للإشادة بمواهبهم . لقد ساء ما يبتغون . فهم من حيث لا يعلمون يبتغون لأقلامهم الرقّ ، ولأفكارهم الانغلاق ، ولمواهبهم

الموت . فالدولة ما عَدت كونها هيئة مؤلفة من رجال ذوي أغراض وذوي مطامع . حتّى ولو تنزّه كلّ رجال الدولة عن الأغراض والمطامع الشخصيّة بقيت للدولة أغراضها ومطامعها . ومن حقّها إذا ما أنفقت من خزينتها أن تطلب ممّن تنفق عليهم أن يخدموا أغراضها ومطامعها . وإذ ذاك فحرّية الأديب في أدبه وَهْم من الأوهام وخرافة من الخرافات . والأديب الذي يبيع إلهامه بمال ، وإن يكن من خزينة دولته ، رحمة الله عليه من الآن وإلى الأبد .

إنّه لمن الخير للأدب أن يبقى طليقاً من شباك الدولة وبعيداً عن الأهواء التي تعصف بسياستها وبرجالها من حين إلى حين . فلا يكون جزءاً من جهاز الحكم ، أو مطيّة مقودها في يد الحكّام . ولا ينسى أنّه كتلة حيّة في جسد الأمّة الحيّ ! وإن الأمّة ، مهما يكن شأنها بين باقي الأمم ، عضو من الأعضاء الكثيرة التي يتكوّن منها ويقوم بها الجسد الأكبر — وأعني الإنسانيّة . فالحكّام يأتون سراعاً ويمضون سراعاً ، والدول تولد وتشبّ وتشيب وتموت . أمّا الشعوب فتبقى . وأمّا الإنسانيّة فلا تموت . فالأدب الذي يقيم لنفسه وزناً ويعرف لذاته قيمة يجب أن يصرف همّه إلى الإنسان قبل حكامه ، وإلى الأمّة قبل الدولة . فلا يعير الحكام والدولة انتباهاً إلاّ على قدر ما ينحرفون بالإنسان عن طريقه القويم

أو لا ينحرفون .

وإنّه لمن الخير للدولة أن تعيش والأدب في سلام تام . وأعني أن تطلق له الحريّة فلا تحاول تقييده في ما يفكّر ويشعر وكيف يليق به أن يُفصح عن أفكاره ومشاعره حتى ولو كان في تفكيره وشعوره وبيانه ما ينافي مصلحة الدولة كما يفهمها رجال الحكم ؛ وحتى لو كان يدعو إلى تقويض أركان الدولة . فالدولة الواثقة من أهدافها ومن نياتها ومن الوسائل التي تلجأ إليها لبلوغ تلك الأهداف وتحقيق تلك النيات لا خوف عليها من الأدب . بل من الأرجح أن تجد لها في الأدب أقوى مُعين وأخلص نصير . والدولة التي أهدافها مزيفة ، ونيّاتها فاسدة ، ووسائلها مشبوهة يستحيل بقاؤها زماناً طويلاً وإن هي سدّت على الأدب جميع المسالك ، فحطّمت الأقلام ، وعقلت الألسن ، وكمّت الأفواه . فالسُّوس الذي ينخر لبابها سيقضي عليها عاجلاً أم آجلاً . وفي الأغلب عاجلاً .

إلا أنّه ليس يكفي الدولة أن تعيش والأدب في سلام . بل هنالك واجبات معنويّة وماديّة تترتّب على الدولة نحو الأدب مثلما تترتّب عليها واجبات معنويّة وماديّة نحو الأمّة . فما دام للأدب تأثيره البالغ في حياة الأمّة ودامت الغاية من وجود الدولة تنمية الأمّة وتوفير أسباب الرزق والراحة

والسعادة لها ، فبأيّ منطق تهتمّ الدولة بتحسين المواصلات ، وتعميم العلم ، وتقوية الصناعات ، وتكثير المنتجات ، وتوفير الريّ والبذار للمزارعين ، والمحروقات للسواقين ، والحبر والورق للصحفيّين ، ولا تهتمّ بالأدب وهو الطريق الأقوم والأبقى بين أرواح الناس وقلوبهم وأفكارهم ، والمدرسة الأوسع والأعمّ لصغار الأمة وكبارها ، والبذار الذي يستغلّه الناس في كلّ ساعة ، وكلّ شهر ، وكلّ عام ؟ بأيّ منطق تعمل الدولة على زيادة ثروة الأمّة المادّيّة بزيادة ما تنتجه وتصدره من الصوف والنعل والبصل ولا تعمل على زيادة ثروتها المعنويّة والماديّة معاً بزيادة ما تنتجه وتصدره أقلام كتّابها ؟

ولا يخطرنّ ببال أنّني أدعو الدولة إلى الاتجار بالأدب . معاذ الله . ولكنّني أدعو الدولة إلى تفهّم حقيقة بسيطة جدّاً . وهي أن الأدب روح وجسد . أمّا الروح ففكر وشعور وذوق وفنّ وأشواق وأحلام . وأمّا الجسد فغلاف وورق وحبر وطباعة وتجليد . وهذه كلّها أمور ماديّة ليس في قدرة الكاتب خلقها حين يشاء أو ابتياعها بالثمن الذي يشاء . في حين أن الدولة تملك القدرة على خلقها أو في الأقلّ على ابتياعها من أسواقها مثلما تملك القدرة على ابتياع الزفت لتعبيد الطرق ، والسماد لإمداد الأرض بالغذاء الذي تحتاج

إليه كي لا يحلّ بها العقم والبوار . فعلامَ لا تهتمّ الدولة بتوفير المواد الضروريّة لكيان الأدب وتهتمّ بتوفير الزفت للطرق والسماد للأرض ؟ أتكون قرائح الأمّة ومواهبها الروحيّة والفنيّة أقلّ قيمة في نظر الدولة من الزفت وأحطّ قدراً من السماد ؟ وإذن فأيّ مبرّر لوجود الأمّة ووجود الدولة التي تسوسها ؟

أقول ذلك وتجارب السنين الأخيرة ما تزال ماثلة لذهني ولعينيّ أيّام راحت الحرب تنهب خيرات الأرض وتنكب سكّان المعمورة بالقلّة من كلّ شيء إلاّ البغض والحقد ، وإلاّ وسائل القتل والدمار ، ممّا حمل جميع الدول على تقنين المواد الأوليّة التي لا تستقيم حياة الناس في هذه الأيّام بدونها . ومنها الورق الذي هو المادّة الأولى في حياة أيّ كتاب وبالتالي في حياة الأدب .

لقد حرصت الدول غنيّها وفقيرها ، كبيرها وصغيرها ، أن توفّر الورق إبّان الحرب لكلّ ما من شأنه أن يساعد مجهودها الحربي . ونحن في هذا الشرق ما نسينا النشرات الأنيقة التي كانت توزعها علينا بعض الدول بالمجان وتلك التي كست بها جدران عواصمنا وجوانب طرقاتنا . أمّا دويلاتنا الشرقيّة فكانت تتناول نصيبها الضئيل من الورق من حليفاتها الكبار فتوزّعه بالتقتير على الصحافة . ذلك لأن

الصحافة ، على أهميّة شأنها ، كانت في نظر حليفاتنا الكبار باباً من أبواب الدعاية لمن . وهي في نظر حكوماتنا بوق لا بدّ منه لتسيير أمور الدولة . فهي جديرة باهتمام الدولة وإن سفلت أغراض الكثير منها وأقحلت قرائحه فكان بالموت أولى منه بالحياة .

أمّا الأدب فكان عليه أن ينظر إلى كلّ ذلك متلمظاً بريقه ، وأن يقبع طوال سني الحرب في رؤوس الأدباء وقلوبهم من غير أن يتاح له الخروج إلى عالم الله الفسيح . إلاّ أدب الثروة والبهرجة والأناقة ، وما أندره بين الأدباء ! فما من دولة من دول الشرق تعطفت على الأدب بحصة ، ولو ضئيلة ، من الورق أو حاولت أن تحميه من جور « السوق السوداء » التي لا طاقة له على اقتحامها . فكأنّه غريب عن الأمّة وحياتها ، أو كأنّه نبتة طفيليّة في جسدها .

وإني لأسأل نفسي وأسألكم : ما قيمة أمّةٍ بغير أدبائها ؟ وما قيمة دولة لا تعرف لأدب الأمّة قيمة فتوفر له المواد الضروريّة لوجوده ؟

أمّ الحياة

وأعني بها المرأة . فقد ورد في سفر التكوين أنّ آدم سمّى امرأته حوّاء « لأنّها أمّ كلّ حيّ » .

إنّها لمغامرة مني أن أخوض بكم موضوعاً لاكته الألسن من كلّ جانب وقلّبته الأقلام على ألف وجه ووجه منذ أن تعلّم الإنسان النطق ومنذ أن جرى له قلم بمداد . حتّى ليتبادر إلى الذهن أنّ كلّ جديد يقال في الموضوع لا يمكن أن يكون أكثر من ترجيع أصداء أو اجترار أفكار . إلاّ أنّني ما كنت أقدم على مثل هذه المغامرة لو اتّفق لي أن وقعت في كلّ ما سمعته وقرأته عن المرأة على ما ينقع غُلّة قلبي ويكبح بلجاجة فكري .

وماذا سمعت وقرأت حتّى اليوم عن المرأة ؟

سمعت مَن يقول إنّها مخلوق لا شأن له في ذاته . ولا غاية من وجوده إلاّ أن يكون عوناً لمخلوق آخر على بلوغ غايته من وجوده . وذلك المخلوق الآخر هو الرجل . فالرجل هو الأصل والمرأة الفرع . هو المبتدأ وهي الخبر . هو الزيت والنور وهي الإناء أو المصباح .

وسمعت من يقول إنّ المرأة براء من روح الله . لأنّها ما تقبّلت نسمة الحياة من فم الخالق وصدره مثلما تقبّلها آدم . بل استُلّت ضلعاً من أضلاع آدم وسُوّيت امرأة . فقيمتها في ميزان الوجود دون قيمة الرجل ، وأجرها دون أجره بكثير .

وسمعت من يقول إن المرأة حليفة الشيطان وقد تآمرت وإيّاه على الرجل فحملته على عصيان ربّه وبذلك سبّبت له خسارة الغبطة الفردوسيّة وأوقعته في حبائل الخير والشرّ وأشداق الموت .

والذين يقولون هذه الأقوال يستندون في الغالب إلى ما ورد في التوراة عن تكوين آدم وحوّاء . ولكنّهم يتقيّدون بالحرف فيفوتهم الروح . والحرف بغير الروح جيفة لا حياة فيها ولا حركة ، ولا وزن لها ولا قيمة . فالتوراة بعهديها القديم والجديد هي في اعتقادي الكتاب الفريد الذي يصوّر حياة الإنسان تصويراً هو الغاية في الصدق والدقّة والإبداع . فمن قول موسى في أوّل سفر التكوين : « في البدء خلق الله السموات والأرض » إلى قول الرسول يوحنا في آخر سفر الرؤيا : « نعمة ربّنا يسوع المسيح معكم أجمعين . آمين » – من فاتحة العهد القديم حتى خاتمة العهد الجديد – تمتدّ أبديّات من الغفلة الهانئة التي لا تعرف شيئاً فلا تقدر على

شيء . تتلوها أبديّات من اليقظة التي تدفع ثمن المعرفة والمقدرة بحوراً من الدمع والدم ، ودهوراً من الحزن والألم ، لتنتهي جميعها في ذلك الانعتاق الأبديّ الذي أُعلن من أعالي الصليب : « أبتاه في يديك أستودع روحي . »

وكتاب يصوّر لكم حياة الإنسان في بدايتها ونهايتها ، ومدّها وجزرها ، وأسافلها وأعاليها ، وظواهرها وبواطنها ، وأرجاسها وأقداسها ، لكتابٌ يستحيل أن تدلّ حروفه على معانيه إلاّ كما يدلّ الرمز على المرموز إليه . فالمعاني كلّما اتّسعت ضاقت بها الحروف . كالأرواح كلّما سمت ناءت بأغراضها الأجساد .

لذلك كان حظّ المرأة بين رجال يعبدون الحرف دون الروح ، والرمز دون المرموز إليه ، حظّاً سواده أكثر من بياضه ، وباطله أضعاف حقّه ، وظلمه أضعاف أضعاف عدله . ولكنّني أستدرك فأقول إنّ حظّ الرجل المقيَّد بالحرف دون المعنى وبالرمز دون المرموز إليه ما كان يوماً من الأيّام خيراً من حظّ المرأة . ومتى كان حظّ الظّالم من دنياه أفضل من حظّ مظلومه ؟ أو كان نصيب الجاهل من تماديه في جهله غير الجهل وما يحبل به الجهل من عذاب وعناء وشقاء ؟

ويدور الزمان فإذا بنا في عصر يقول بالمساواة التامّة بين الرجل والمرأة — لها ما له وعليها ما عليه في إدارة شؤون

العائلة وشؤون الدولة . وتبتهج المرأة بهذه المساواة تنتزعها من الرجل انتزاعاً . ويخيّل إليها أن الحياة توشك أن تلقي إليها بمفاتيح السعادة الأبديّة . لقد رضيت بالقشور وفاتها اللّباب .

أمّا اللّباب الذي ما أدركته المرأة بعد ولا أدركه الرجل فهو أن الإنسان بشطريه المذكر والمؤنث مطالَب بأكثر من تجديد النسل ، ومن تعمير البيوت والمدن والممالك ، ومن استثمار الأرض وخيراتها . وهنا أعود بكم إلى سفر التكوين حيث يقول : «وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا . فخلق الله الإنسان على صورته . ذكراً وأنثى خلقهم» . وإذن فالإنسان الذي هو الرجل والمرأة معاً مطالَب بتحقيق صورة الله فيه . وصورة الله تعني معرفة كلّ شيء والقدرة على كلّ شيء .

لقد كان آدم قبل أن تكون له حواء في حالة من غبطة الغيبوبة التي تشبه غيبوبة الطفولة . فلا فكر ولا قدرة ولا إرادة . وكانت شجرة الخير والشرّ وشجرة الحياة في متناول يديه فما مدّ إليهما يداً . أمّا من بعد أن ازدوج فقد كان أوّل ما تنبه فيه الشوق إلى المعرفة . والمعرفة لا تكون إلاّ بالمقارنة . والمقارنة لا تكون إلاّ بين أمرين غير متشابهين .

لقد انقسم آدم على ذاته ليعرف ذاته . فطريق الخير والشرّ

هو الطريق الأوحد إلى المعرفة . وأيّ معرفة ؟ — معرفة الحياة . ولعلّكم تدركون هنا عظمة سفر التكوين إذ جعل الإنسان يبدأ حياته بتذوّق ثمار شجرة الخير والشرّ دون شجرة الحياة . لأنّه لو تذوّق ثمر شجرة الحياة قبل أن يتذوّق الخير والشرّ لما عرف للحياة طعماً على الإطلاق . ولكنّه من بعد أن اختار طريق الاختبار الذاتي — طريق الخير والشرّ — سيصبح في إمكانه ، إذا هو سلكه حتّى النهاية ، أن يتذوّق طعم الحياة التي لا تموت . وشجرة الحياة ما تزال في انتظاره عند نهاية مطافه في دنيا الخير والشرّ .

من كان في حاجة إلى برهان على أن طريق الازدواج هو طريق المعرفة وطريق الحياة فلينظر إلى جسده لا أبعد . فنحن لا نمشي برِجل واحدة بل برِجلين ، ولا نعمل بيد واحدة بل بيدين اثنتين . وكذلك نبصر بعينين ، ونسمع بأذنين ، ونشمّ بمنخرين ، ونتكلّم بشفتين ، وكلّ ما ازدوج فينا إنّما ازدوج بقصد التعاون لا التنابذ ، وقصد الوصول بنا إلى غاية موحّدة لا إلى غايات متشعّبة متناقضة .

كذلك ازدوج الإنسان ليتمكّن من سلوك طريق المعرفة . ولو أنّه بقي فرداً ولا شبيه له من جنسه ، كما كان آدم قبل أن تكون له حواء ، لبقي إلى الأبد عقيماً من الفكر والإرادة والمعرفة ، وبقيت مواهبه الغزيرة دفينة فيه نظير ما تبقى قوّة

الحياة دفينة في بذرة حُجبت عن التراب والماء ونور الشمس . لولا حواء لما تنبّه آدم إلى الحياة والمعرفة . وحسبها شرفاً وعزّاً وكرامةً أن تكون أمّ الحياة وأمّ المعرفة معاً . أمّا أن يقال فيها إنّها الواسطة لتجديد النسل ، وإنّها ربّة البيت ومربّية الأجيال ، وإنّها فتنة العيون والقلوب ، وملهمة الشعراء والفنّانين ؛ وإنّها جديرة بالجلوس في دسوت الحكم ، وبتصريف شؤون العالم الاقتصادية والسياسيّة — فليس في ذلك كلّه ما يزيد في قامتها قيراطاً وفي قيمتها مثقال ذرّة . تلك ظلال لا أنوار ، وشروح لا متون ، وقشور لا لباب .

إنّما المهمّ أن يدرك الرجل والمرأة أنّهما ما ازدوجا في طريق الخير والشرّ إلاّ ليتوحّدا في نهاية ذلك الطريق عند شجرة الحياة . فهما يوم يدركان ذلك تهون عليهما أمجاد العالم وحظوظه ، وواجبات العيش وحقوقه ، ويعملان يداً واحدة وقلباً واحداً وفكراً واحداً على الإفلات من حبائل الخير والشرّ . وإذ ذاك فلا سابق ولا مسبوق ، ولا سيّد ولا مسود ، ولا جنس خشن وجنس لطيف . بل هنالك نسر جبّار بجناحين متساويين عزماً ومدّى وجمالاً ، يشقّ أجواء الوجود إلى حيث المعرفة والقدرة والحريّة . فصورة الله لن تُمسخ شيطاناً ، وأمّ الحياة لن تغدو أمّ الموت .

غاندي ـ ضمير الشرق المستيقظ

منذ ألفٍ وتسعمئةٍ وعشرين سنة وقف يسوع الناصريُّ على جبلٍ من جبال الجليل مخاطباً تلاميذه والجماهير المحتشدة حواليه ، فقال في جملة ما قال :

« قد سمعتم أنّه قيل للأوّلين : لا تقتل . فإن مَن قتَلَ يستوجب الدينونة . أمّا أنا فأقول لكم : إنّ كلّ من غضب على أخيه يستوجب الدينونة . . .

« قد سمعتم أنّه قيل : العين بالعين والسنّ بالسنّ . أمّا أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشرّير . بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخلّ له رداءك أيضاً . ومَن سخّرك ميلاً فامشِ معه اثنين . . .

« قد سمعتم أنّه قيل : أحبب قريبك وأبغض عدوّك . أمّا أنا فأقول لكم : أحبّوا أعداءكم . وأحسنوا إلى مبغضيكم . وصلّوا لأجل مَن يُعنتكم ويضطهدكم لتكونوا بني أبيكم الذي في السموات . لأنّه يُطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين . . .

« لا تدينوا لئلا تدانوا . لأنّكم بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم . ما بالك تنظر القذى الذي في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك ؟ يا مرائي ، أخرج أوّلاً الخشبة من عينك وحينئذٍ تنظر كيف تخرج القذى من عين أخيك . . . »

ومنذ ثلاث وستّين سنة قرأ موعظة المسيح على الجبل شابّ هنديّ كان يدرس الحقوق في لندن وكان اسمه موهانداس كارماشند غاندي وله من العمر عشرون عاماً . فكانت تلك الموعظة نقطة تحوّل عجيب في مجاري فكره وحياته . إذ هدته إلى كنوز الحكمة الشاملة التي اختزنتها بلاده في أسفار « الأوبانيشاد » قبل أن يولد المسيح وقبل أن يكلّم الله موسى على طور سينا بأجيال وأجيال .

و « الأوبانيشاد » — مهما تضاربت الآراء في تاريخها — أقدم من أسفار موسى بغير شكّ . أمّا خلاصة فلسفتها فيحتويها كتيّب يُعرف باسم بهاجفاد جيتا (Bhagavad Gita) ومنزلته عند الهندوس كمنزلة الإنجيل عند المسيحيّين والقرآن عند المسلمين .

لقد كان الإنجيل مفتاح الـ « جيتا » عند غاندي . فأذهله ما في الكتابين من تقارب في الهدف على بعد الشقّة التي تفصل ما بينهما في الزمان والمكان . وعلى اختلاف ظاهر في أساليب البيان والتمهيد إلى الهدف . فكلاهما يقول بوجود ذاتٍ عالمية

شاملة . وكلاهما يدعو إلى كبح جماح النفس للتغلّب على الذات الفرديّة تغلّباً يتيح للإنسان الاتصال بالذات الشاملة . وكلاهما يسير بالإنسان إلى حيث يدرك الصلة الوثيقة التي تربطه بالناس أجمعين وبسائر المخلوقات . ولذلك كان حجر الزاوية في تعاليم المسيح والتعاليم الهندوكيّة مقابلة الإساءة بالصفح ، ومقاومة الشرّ بالخير ، والكفّ عن أذيّة المخلوقات الحيّة . وهو ما يدعوه الهندوس « أهِمْشا » .

والأهِمْشا هذه هي التي تقضي على الهندوس بالامتناع عن أكل اللّحوم ، وباعتبار البقرة حيواناً مقدّساً . فكأنّهم اتّخذوا من هذا الحيوان القويّ ، المسالم ، الكريم ، اللّبون ، رمزاً يمثّل المملكة الحيوانيّة كافّة . فبالغوا في إكرام البقرة والحفاظ عليها إلى حدّ أن اتّهمهم الغير بعبادتها . وذلك افتراء وبهتان .

راحت تلك التعاليم تفعل في نفس غاندي فعل الخميرة في العجين . لقد اطّلع عليها ملايين الناس من قبله فما فعلت فيهم فعلها فيه لأنّهم ما كانت لهم الخميرة التي كانت له . وأعني خميرة الذين أعدّتهم الحياة للخروج بالنّاس من مأزق حرج زجّ بهم فيه جهلهم للحياة وقوانينها وأهدافها . وإليكم صورة مصغّرة للمأزق ، بل المآزق التي كان ، وما برح ، العالم يتخبّط فيها عندما شعر غاندي بأن في ذمّته رسالة

يؤدّيها إلى بلاده بنوع أخصّ ، وإلى الشرق ثمّ إلى الغرب بنوع أعمّ :

منذ اكتشاف العالم الجديد أخذت قارّة واحدة — هي أوروبا — تبسط سلطانها بالتدريج على سائر قارّات الأرض . فما إن أقبل القرن العشرون حتّى باتت كلّ افريقيا ، وكلّ آسيا وأوقيانيا ، وكلّ ما تبقّى من العالم المعروف مستعمرةً ، أو سلسلة مستعمرات للشعوب الأوروبيّة ؛ أو الشعوب المتحدرة منها . وإذا قلنا للشعوب الأوروبّة فإنّما نعني طبقة منها — هي طبقة ذوي النفوذ المالي والسياسيّ . وتلك الطبقة راحت تستغلّ مستعمراتها استغلالاً لا يقيم وزناً لشيء إلاّ للكسب من أيّما باب جاء . وفي سبيل ذلك الكسب كانت تبيح المحرّمات . فتعامل سكّان المستعمرات معاملة لا تليق بالبهائم . فهم طعام للمدفع ، وهم عضلات تساعد المستعمر على نهب خيرات الأرض من غير أن يصيبهم منها إلاّ بقدر ما يصيب بغل الناعورة من الماء الذي يخرجه من النهر .

ذلّ وفقر وجهل ، ومجاعات وأوبئة ، وتفسّخ أخلاقي واجتماعي وديني — ذلك قليل من كثير ممّا جرّه ويجرّه الاستعمار في ركابه على الشعوب المستعمَرة . وذلك ما تفتّحت عليه عينا غاندي في بلاده ، وما ألهبه حماسة للنضال في سبيل

قومه . فكانت فاتحة نضاله في جنوبي افريقيا حيث دعاه شغل طارىء ، وحيث لـمَس لـمْس اليد كلّ ما كان بنو جلدته يُسامونه من خسف وهوان وعنت بين أيدي المستعمرين الأوروبيّين . فكان من ذلك أن نذر نفسه للدفاع عنهم بكلّ ما أُوتيه من حرارة إيمان بالإنسان وحقّه في الحياة والكرامة والعدل والحريّة .

جاهد غاندي في جنوبي افريقيا عشرين حولاً ذاق في خلالها أصنافاً من البؤس والاضطهاد والمذلّة . ولكنّه تحمّلها كلّها بصبر عجيب ، وإرادة لا تلتوي ، وإيمان لا يتزعزع بأن المحبّة أقوى من البغض ، واللّين أصلب قناة من العنف ، وبأن الحقّ منتصر لا بدّ في النهاية . ثمّ عاد إلى بلاده ليطبّق فيها على ثلاثمئة مليون ونصف المليون عين الأساليب التي طبّقها على مئة وبعض المئة من آلاف أبناء جنسه في افريقيا . وأعني أساليب المقاومة العزلاء من كلّ سلاح إلاّ الحقّ ، والرامية إلى استرداد الكرامة البشريّة بقوّة الإيمان والمحبّة والتضحية لا بقوّة السيف والنار ، ولا بالمكر والغدر ، ولا بالبغض وحبّ الأخذ بالثأر .

لقد أذلّ المستعمر الهند بما كان يبتزّه من خيراتها الخام لينقلها إلى بلاده ثمّ ليعيدها إلى الهند منسوجات وأدوات للاستهلاك . إذن فلتنبذ الهند منسوجات المستعمر ، ولتكسُ

نفسها من نتاج مغزلها . وقد احتكر المستعمر الملح . إذن فلتزحف الهند إلى البحر ولتستخرج منه ما تحتاج إليه من الملح . ثمّ إن المستعمر لا يستطيع أن يحكم الهند بغير معونة الهنود أنفسهم . إذن فليكفر الهنود بكلّ وظيفة وكلّ صلة حكوميّة تربطهم بالمستعمرين . ولتحذر الهند في كلّ ذلك من أن تريق قطرة دم هندي أو غير هنديّ .

وهكذا أصبح المغزل في يد غاندي أمضى من السيف في يد « دجّان بُلّ » . وأصبحت الملاءة البسيطة البيضاء التي كانت تلفّ جسد غاندي النحيل درعاً لا تخترقها مدافع أساطيل سيدة البحار . وأصبحت عنزة غاندي أشدّ بأساً من الأسد البريطاني . وهكذا انتفضت الهند كلّها انتفاضة جبّارة ومشت بأجسادها وقلوبها وأرواحها خلف ذلك الرجل الزاهد إلاّ في الحياة كما شاءها الله أن تكون ، السائر إلى غايته في جسد هزيل « لو توكأت عليه لانهدم » . ولكن بروح تهزأ بالمادّة وجميع مغرياتها ، وتهزأ حتى بالموت .

وهكذا تمّت الأعجوبة . فقد خلعت الهند عن كاهلها نير الاستعمار ، وبدأت تفكّك عنها ما تحجّر على كرّ العصور من تقاليدها الدينيّة والاجتماعيّة . فالطبقات الأربع باتت أكثر مرونة في تمازجها . والمنبوذون باتوا غير منبوذين . والهند التي كانت في مؤخرة الركب البشريّ تمشي اليوم

بخطوات سريعة وواسعة لتعود فتحتلّ المقام المرموق الذي كان لها في سالف العصور .

كثيرٌ هم الذين سخروا بمحرّر الهند في بدء دعوته . وفي مقدّمتهم نائب الملك «تشلمز فورد» الذي قال في دعوة غاندي وأساليبه إنّها صبيانيّة وفي منتهى الحماقة . ولكنّ هذا الرجل الذي كان يؤمن بالصيام ككفّارة عن ذنوبه وذنوب تُبّاعه قد عاش ليخذل كلّ الساخرين به . وليرى غول الاستعمار تتقلم أظافره ، وتتحطّم أنيابه ، ويتقلّص ظلّه رويداً رويداً عن الشرق . والرصاصة الأثيمة التي أودت بحياته ما كانت غير وسام رصّعت به الحياة صدر زعيم عظيم من زعمائها ، وقائد حكيم من قوّادها ، وغير خاتم ختمت به جهاده الطويل ، ونصره النبيل .

أجل . لقد أخذ الشرق يستفيق . وأكبر الفضل في استفاقته يعود إلى غاندي . وإنّها لاستفاقة تؤذن بانبلاج فجر جديد في الأرض .

أوزار الماضي

الناس على سفر . وإن تسألني : من أين وإلى أين ؟ أجبك : من غياهب الجهل إلى سناء المعرفة – من غفلة الغريزة المستسلمة إلى وعي الإرادة الخلاقة – من عبوديّة الموت إلى حريّة الحياة .

ثمّ إن تسألني : من أين لي علم ذلك ؟ أُجبك : من هذه النفس البشريّة القلقة التي هي نفسك ونفسي ونفس كلّ إنسان ، والتي لا تعرف الراحة ولا الاستقرار . فهي أبداً تفتّش عن أشياء وأشياء ، إن لم يكن بالرِّجل والساعد فبالعين والأذن ، أو بالأنف واللسان ، أو بالفكر والخيال . وهي لا تكاد تظفر بحاجة من حاجاتها أو رغبة من رغباتها حتى تنصرف عنها إلى حاجة جديدة ورغبة جديدة . فكأنّها والقناعة عدوان لدودان ، وكأنّها والزمان فرسا رهان ، وكأنّ الراحة حرمت عليها ما دامت الأرض والسماء تكتمان عنها سرّاً أو تكبتان لها رغبة .

لله ما أعند النفس مفتّشاً وما أدهاها محارباً ! فلا الطبيعة بعناصرها الساحقة ، ولا الموت بجحافله الماحقة ، ولا الزمان

بعراقيله وأحابيله استطاعت أن تنكس للنفس علَماً ، أو أن تفلّ لها عزيمة ، أو أن تلفّها بأكفان القنوط فتلقي سلاحها ، وتُقرّ بانكسارها ، وتستسلم صاغرة خاسرة . بل إن الأمر على العكس من ذلك بالتمام : فما خسرت النفس معركة حتى انبرت تخوض معارك . ولا استعصى عليها باب حتّى راحت تدق أبواباً . ولا عجزت عن دكّ حاجز بوسيلة من الوسائل حتّى احتالت عليه بوسائل أخرى . حقّاً إنّه العناد الذي لا يستطيع وصفه قلم أو لسان مهما يكن نصيبه من البلاغة .

لقد ضايق الإنسانَ في البدء أن يحيا حياة البهيمة ، فيشبع إذا جادت عليه الطبيعة بالغذاء ، ويجوع إذا حجبته عنه . فاكتشف فنّ الحراثة والزراعة ، وفنّ تخزين القوت من يوم ليوم ، ثمّ من فصل لفصل ، ثمّ من عام لعام .

وضايقه الحرّ والقرّ ، والزوابع والعواصف ، فاخترع الخيط والإبرة وفنّ النسج والبناء ، وراح يكسو جسده حسبما تقتضيه حاجته ، ويبني المساكن فيأمن غدر العواصف . حتى إنّه استطاع أن يكيّف حرارة مسكنه على هواه .

وضايقه أن يكون ذا نطق فلا يستطيع أن يحفظ ما ينطق به إلاّ بمقدار ما تستوعبه ذاكرته الخوّانة ، ولا أن ينقله من مكان إلى مكان ، فاستنبط فنّ الكتابة والطباعة .

وضايقه أن لا تكون له قدرة الطير على التحليق في الفضاء ، وقدرة السمكة على ارتياد الأعماق، فاخترع الطيّارة والغوّاصة.

وضايقه أن لا تكون له عين تبصر في الظلام وأذن تسمع الأصوات من بعيد ، فاكتشف الكهرباء واخترع التليفون والراديو .

وشاقه أن يعرف أشياء عن جسده وأجساد الكائنات حواليه ، وعن القوى التي تفعل وتتفاعل فيها . فكانت علومه .

وشاقه أن يسبغ على حياته شيئاً من الجمال يكون بمثابة بلسم لجراحه الحرّاقة ، ولأعصابه المرضوضة ، وأفكاره المكدودة . فكانت فنونه .

وشاقه أن يعرف من أين جاء ، ولماذا جاء ، وأين يمضي . فكانت أديانه وفلسفاته .

ما لي أُعدِّد انتصارات النفس في سباقها مع الزمان وفي كفاحها مع المجهول وهي لا تكاد تحصى ؟ ولكنّها ، على كثرتها ، ليست غير وشل من بحر . وغير بداية بارعة تبشر بنهاية لامعة . فالشموس والأقمار والمجرات في أجوائها لا تزال علامات استفهام هائلة . ونحن نريد أن نعرف كيف تكوّنت ، ولماذا تكوّنت ، ونريد أن نعرف ما فيها ومن فيها . ثمّ نريدها مطايا لغاياتنا بدلاً من أن نكون مطايا لغاياتها ، حتى إذا ضاقت بنا الأرض مسكناً اتّخذنا من

الفضاء ومن كواكب الفضاء مساكن .

ونحن نريد أن نفض الخواتم عن كلّ ما في الأرض من سائل وجماد ونبات وحيوان وإنسان ، وأن نسيطر عليه سيطرة كاملة .

ونحن نريد أن يكون في الأرض سلام وخصب وفرح واطمئنان .

وأخيراً نريد أن نقهر الموت ، وأن نخلق الحياة بمثل القدرة التي خلقتنا .

* * *

إنّها لأهداف بعيدة إلى حدّ أن تبدو مستحيلة المنال. ولكن ليس في الزمان من بعيد ، مثلما ليس فيه من مستحيل إلاّ عند من كفّت بصائرهم وأبصارهم فتفتّتت عزائمهم ، وتشعّثت أفكارهم ، وانهارت إرادتهم . أمّا الذين عرفوا عناد النفس في كفاحها العنيف مع الزمان ، وفي اقتحامها معاقل المجهول ، فيدركون أنّها سائرة حتماً إلى أهدافها البعيدة بعين الدوافع التي مكنتها حتى اليوم من أهدافها القريبة . وما تلك الدوافع غير أشواقها اللافحة إلى السيطرة على الأكوان سيطرة لا يبقى معها من أثر لأيّ حدّ أو قيد . حتى ولا للموت . أجل . نحن سائرون إلى أهدافنا . وما من قوّة تستطيع صدّنا عنها . فالسلاح الذي سلّحتنا به الحياة لتمكّننا من الاستمتاع بها

كاملة ، صافية ، سافرة هو أمضى من أن يفله جوع أو عطش ، أو خيبة أو وجع ، أو مرض أو موت . بل إنّ هذه كلّها مشاحذ تشحذ ذلك السلاح بغير انقطاع ، فلا يعلوه صدأ ولا يحلّ به كلل . إنّه الشوق الذي لا ينطفىء إلى الاتّحاد بما نشتاقه . ذلكم هو السلاح الذي إذا عرفنا مضاءه وأحسنّا استعماله استعضنا به عن كلّ سلاح عداه .

* * *

نحن سائرون إلى أهدافنا . ما في ذلك أقلّ ريب . إلاّ أنّنا نسير بأرجل السلاحف وكان في إمكاننا أن نطير بأجنحة النسور . ونسير بأرجل السلاحف لأنّنا موقورون حتّى الإرهاق بأوقار لا نفع منها ، نحملها من الأمس إلى اليوم ، ومن اليوم إلى الغد . وجلّها أشياء ورثناها عن الماضي وفات وقت الانتفاع بها . ولكنّنا لا نطيق الانفصال عنها حتّى وإن كلّفنا الحفاظ عليها بحوراً من الدمع والدم ، والحزن والألم ، فأخّرنا دهوراً عن بلوغ أهدافنا . وليس ما يحببها إلينا إلاّ أنّنا ألفناها واعتدناها حتّى بتنا نخشى أن تذهب بذهابها عصارة الحياة وحلاوتها .

إن شأننا مع الأوزار نحملها من أمسنا إلى يومنا ، ومن يومنا إلى غدنا ، هو شأن ربّة البيت الجاهلة لا تنفكّ تجمع أمتعة جديدة إلى القديمة حتّى يضيق البيت بالأمتعة وبساكنيه .

وإن قال لها قائل : ما نفعك من هذا الكرسيّ المهشم ، أو من تلك القبّعة الرثّة ، أو من ذلك الحذاء الغريب الذي لم يبق في الأرض من يحتذي حذاء على شاكلته ؟ أجابته بأن الكرسيّ عزيز على قلبها لأنّه الكرسيّ الذي كان « المرحوم » جالساً عليه عندما كاشفها الحبّ لأوّل مرّة . وأن القبّعة الرثّة هي القبّعة التي ابتاعتها لبكرها في عيد ميلاده الأوّل . وأن الحذاء هو الحذاء الذي عاد فيه جدّها من حرب كيت وكيت . ولو أنّها ما كانت مائعة القلب والفكر والإرادة إلى ذلك الحدّ لألقت بتلك الأشياء في النار فاستراحت من نقلها وتنظيفها والسهر على سلامتها . ولانفرج بيتها لساكنيه فأحسنت إلى نفسها وإليهم وما أساءت إلى جدّها وزوجها وبكرها بشيء .

* * *

لست أعني أن يقطع الإنسان كلّ رباط بماضيه ليسهل عليه السير نحو أهدافه . فمن الماضي ما هو بمثابة الجذور والجذوع . وهذه لا حياة لنا إلاّ بها . ونحن لو شئنا اقتلاعها ، لما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . ومنه ما هو بمثابة الفروع والأغصان . وهذه ينخر بعضها السوس ، وبعضها تهشمه العناصر ، فتصبح عبئاً لا خير فيه للجذور والجذوع ، وبؤرة يتسرّب منها الفساد إلى الفروع والأغصان الصالحة . وهكذا

تحدّ من نموّ الشجرة ، وقد تنتهي بها إلى العقم فالموت . فتقليمها ثمّ تلقيمها النار أجدى لها وللشجرة .

من منّا لا يسخر اليوم بصياد يمضي إلى الصيد وفي كتفه الواحدة بندقيّة حديثة الطراز ، وفي الأخرى قوس وجعبة من السهام ؟

ومن لا يهزأ اليوم بجيش يمشي إلى القتال مسلحاً بالطيارات والدبّابات والقنابل الذرّيّة وكذلك بفؤوس من الصوّان وما إليها من الأسلحة الّتي عرفتها عصور ما قبل التاريخ والّتي أصبحت اليوم آثاراً في متاحف العاديّات ؟

أفليس من الأجدر بنا أن نسخر بأنفسنا ونحن نحمل في رؤوسنا وفي قلوبنا وفي بيوتنا وفي معاهدنا العلميّة والدينيّة أشياء كانت فيما مضى عوناً لنا في كفاحنا ، ونصيراً في بلوغ ما بلغناه من أهدافنا ، أمّا اليوم فقد باتت أوزاراً لا نفع منها . بل باتت أحابيل لأقدامنا ، وأقنعة لأبصارنا ، وفخاخاً لأفكارنا . وبات الضرر كلّ الضرر في الاحتفاظ بها ، والتغنّي بمنافعها وجمالها ، والتلهّي بنقلها سالمة ، كاملة من يوم نحن فيه إلى يوم يليه .

كثيرة هي تلك الأوزار وهائلة . وليس في الإمكان وصفها أو حصرها جميعاً . ولكنّي محدثكم عن بعضها ، ومن ذلك البعض أوزار اللّغة .

أوزار اللغة

يتحدّث الناس بالكثير من الإعجاب والدهشة عن فتوحات العلم الحديث ، حتى ليخيّل إلى البعض أن الإنسان يوشك أن يقبض على سرّ الحياة والموت ، وأن يصبح السيّد المطلق في الكون . وما العلم الحديث غير مولود واحد من مواليد الفكر البشري ، وكلّها حريّ بالإعجاب والدهشة . كالفنون بأنواعها ، والديانات والفلسفات على اختلافها . ولكن أدهاها وأعجبها وأدهشها وأهمّها على الإطلاق في اعتقادي هي اللغة ، التي لولاها لما كانت علوم ولا فنون ولا ديانات ولا فلسفات .

لله ما أدهى اللسان والشفاه تتحرّك بعشرين أو ثلاثين أو أربعين حرفاً لا أكثر ، ثمّ ما أدهى الفكر يزاوج بين تلك الحروف فإذا بها مقاطع ، وبين المقاطع فإذا بها كلمات تدلّ على كلّ ما تقع عليه العين ، وتسمعه الأذن ، ويشمّه الأنف ، وتلمسه اليد ، ويتذوّقه اللسان ، وكلّ ما ينبض به القلب من حزن وفرح ، وقلق واطمئنان ، وشكّ وإيمان . ثمّ يزاوج بين تلك الكلمات فإذا بها عبارات وفصول وروايات ،

وإذا بها علوم وفنون ، وفلسفات وديانات ، ومدنيّات وحضارات. . . وإذا الناس أينما كانوا يتفاهمون ويتلاقحون، ويتعاونون أو يتنابذون ، ويتصادقون أو يتخاصمون ، ولكنّهم يسيرون أبداً إلى أهدافهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون ! ولو لم تكن لهم لغة لما عرفوا لهم هدفاً ، ولما استطاعوا وصل ماضيهم بحاضرهم ، ولا اختزان المعرفة من جيل إلى جيل ليستعينوا بما اختبروه في الأمس على اقتحام مصاعب ومشاكل تعترّض سبيلهم اليوم أو في الغد .

تلك لعمري عجيبة الإنسانيّة الكبرى . ومن المؤسف أن يألف الناس اللغة ، كما ألفوا أجسادهم والطبيعة من حواليهم ، فلا يبصرون فيها عجيبة ، وأن يبصروا العجائب في اكتشافات العلم الحديث . وما هي غير جذع من جذوع الدوحة الأمّ التي هي اللغة !

من الأكيد أن الإنسان خلق اللغة وما خلقته اللغة . وقد خلقها لتكون آلة طيّعة في يده يستعين بها على بناء حياته ، وحلّ مشكلاته ، وبلوغ أهدافه . لا ليكون آلة طيّعة في يدها . ولأنّها من عظيم الأهميّة حيث هي ، فلا عجب أن يبالغ الإنسان في الحفاظ عليها ، وفي تنسيقها وترتيبها وصقلها وضبط معانيها ، ثمّ في ربطها بالقوانين والقواعد مخافة أن تتفكّك أوصالها ، وتضطرب مدلولاتها ، وتتبلبل مقاصدها

فيتعذّر التفاهم بها ، وتضيع الغاية الأساسيّة من خلقها ، وتصبح نقمة كبيرة بدلاً من أن تكون نعمة عظيمة عميمة .

* * *

ولكن الإنسان ما خلق لغته في يوم واحد أو قرن واحد . بل كوّنها على مدى قرون ليس يعرف تعدادها إلاّ الذين يعرفون — أو يتوهّمون أنّهم يعرفون — عمر الإنسان على الأرض . وهؤلاء لا شأن لي معهم . فهم يدّعون علم ما في ضمير الله . ودليلك على أن الإنسان خلق لغته هو أنّه ما يزال حتّى الساعة يضيف إليها ويطرح منها . فلغته في تطوّر دائم لأنّه في تطوّر دائم ، ولكنّه تطوّر بطيء جدّاً . وكان من الممكن أن يكون سريعاً جدّاً . بل إنّه لمن العار على الإنسان ذي الفكر الجبّار والخيال المجنّح أن تكون له لغة لا تماشي سرعة الفكر والخيال . بل — على العكس — تحد من قوّتهما وسرعتهما بما تفرضه عليهما من قيود ، كانت جصوناً فيما مضى فأصبحت اليوم أنقاضاً وعقبات ومعاثر .

ما من لغة يتكلّمها ويكتبها الناس في زمان الطيّارة والراديو والصاروخ إلاّ تشكو تضخّماً في ما ورثته عن ماضيها من قيود وحدود ترهق المتكلّم والكاتب على السواء . فلا هي تجلو معنى ولا هي تدفع لبساً . وجلّ ما في الأمر أن الذين خلقوها في سالف الزمان خلقوها لغاية من الغايات . فذهبت

الغايات وبقيت القيود والحدود . وكان من الحقّ والواجب والمنطق أن تذهب القيود والحدود بذهاب الغاية التي وُجدت من أجلها . ولكن الناس يألفون قيودهم – كما يألف العصفور السجين قفصه – فلا يتنازلون عنها إلاّ مكرهين . وفي ذلك من العجب ما فيه .

حسب اللغة أهميّة في حياتنا أنّها حاجة لا يستغني عنها صغير أو كبير ، ولا عالم أو جاهل ، ولا غني أو فقير . وأنّها تكاد تكون أهمّ من الخبز والماء والهواء . فحريّ بنا أن نسهّل على الناس الحصول على تلك الحاجة من أقرب السبل . إذ انّها السلاح الذي لا مندوحة لأيّ إنسان عنه ، والوسيلة التي لولاها لما بلغت الإنسانيّة هدفاً واحداً من أهدافها . ولما كان لها أقلّ أمل في الحصول على مثقال ذرة من المعرفة .

* * *

أريد أن أحصر كلامي في العربيّة وأبنائها . . . فهي اللغة التي رضعتها مع اللبن ، فمشت في دمي ، وجرى بها قلمي ، واتّخذتها الترجمان الأوّل لقلبي وفكري . وأبناؤها إخواني ، صبغتهم صبغتي ، وأسرارهم أسراري ، وأوزارهم أوزاري . وإني لأسائل نفسي وأسائلهم : ما الذي فعلناه في سبيل لغتنا من بعد أن تسلّمناها من أسلافنا ؟ هل نحن عاملون على تنقيتها

من أدرانها ، وعلى تشذيب ما يبس من فروعها وأغصانها ، وعلى إعتاقها من أوزار ماضيها التي ترهقها وترهقنا من غير أن تنفعنا بشيء أو تنفعها ؟

كيف لي أن أجيب بالإيجاب و « أنّ » وأخواتها ، و « كان » وأخواتها ، وأحرف الجزم ، وأحرف النصب ، والممنوع من الصرف ، والأسماء الخمسة ، والأفعال الخمسة ، ونون الإناث ، ولام « كي » ، وعين المضارع ، والإعلال ، والإدغام ، والهمزة ، و « حتّى » وغيرها من طلاسم صرفيّة ونحويّة تنخزني بألف منخز ، وتطعنني بألف حربة ، وتتغامز عليّ بألف عين وعين ، ملؤها الخبث والغطرسة والتهكّم والسخرية ؟

* * *

لست بآسف على زمان أنفقته من صباي وشبابي في صراع عنيد وعنيف مع تلك الطلاسم . لقد جُلت معها جولات طويلة أو قصيرة ، وموفقة أو غير موفقة . فخرجت من حربي معها بما خرجت . ولا سبيل إلى استرداد وقت فات ، أو إلى التعويض عن قوى ذهبت هدراً ، وكان من الأفضل ألاّ تُهدر وأن تُصرف لغايات أنبل وأبقى من فتح همزة أو كسرها ، ومن صرف « نوح » أو منع « إبراهيم » من الصرف .

إلاّ أنّني – والزمان الذي نحن فيه زمان سرعة وحركة وتفتيش محموم – آسف لنفسي ولكلّ من أمسك قلماً أو اعتلى منبراً ، نحرق الكثير من زيوت أدمغتنا ، ومن دماء قلوبنا ، ودقائق أعمارنا تفادياً لإساءة قد تبدر عن غير قصد منّا إلى همزة « أن » أو خبر لعلّ ، أو إلى الواو في « أبوك وأخوك وحموك وفوك وذو مال » ، أو إلى عين المضارع فنجود عليها بالضمّ بدلاً من الكسر ، أو بالكسر بدلاً من الفتح .

وإني لآسف أكثر من ذلك بكثير لفتيان وفتيات يصارعون تلك الطلاسم على مقاعد المدرسة فتصرعهم الطلاسم ، وينتهون بأن يخرجوا من المدرسة بعد أن يتركوا فيها زهرات شبابهم ، ولغتهم عصيّة على ألسنتهم وأقلامهم ، ومحاسنها قصيّة عن مداركهم وأذواقهم . وفي قلوبهم ما يشبه الحقد عليها وعلى الذين خلقوها ورتّبوا لها تلك القواعد ، وعلى الذين يدرّسونها فلا ينقونها من الزوائد .

لست من القائلين بتبسيط اللغة الفصحى إلى حدّ أن تصبح ضرباً من العاميّة المنمقة ، ولكنّني أقول : يا ليت الفصحى تأخذ بعض القواعد عن العاميّة . فهي لو فعلت ذلك لاستغنت عن الكثير من القواعد التي ما برحت تتمسّك بها جيلاً بعد جيل . وما هي غير أوزار ثقيلة ورثتها عن الماضي ، وفات

وقت نفعها من زمان ، وقد أشرت إلى البعض منها . وإنّه لمن الخطل الفادح والجهل المطبق أن ننكر على العاميّة عبقريّة تستمدّها من حيويّة الشعوب الناطقة بها كتلك التي استمدتها الفصحى في ما مضى من حيويّة القبائل الناطقة بها .

ونحن لو تفحّصنا عبقريّة اللغة العاميّة بتجرّد مطلق ، لوجدناها أقرب ما تكون من عبقريّة اللغة الإنكليزيّة التي هي في هذه الأيّام أكثر اللغات حيويّة وأوسعها انتشاراً . فالعاميّة — كالإنكليزيّة — قد استغنت عن الإعراب في أواخر الأسماء والأفعال ، فلا رفع ، ولا نصب ، ولا جرّ ، ولا جزم ، ولا تمييز في الصفات بين الذكور والإناث في صيغة التثنية والجمع . إذ ان فطنة القارىء كفيلة بأن تميّز بالقرينة ما بين الفاعل والمفعول به ، وبين الذكور والإناث ، ولا حاجة بها على الإطلاق إلى التفريق بين أحرف النفي والجزم ، وبين خبر « كان » واسم « لعلّ » ، والممنوع من الصرف وغير الممنوع ، وفي استطاعة العامة أن تتفاهم كلّ التفاهم بدون هذه الشعوذات اللغويّة . ذلك لأن العامة جماعة حيّة تتطوّر مع تطوّرات زمانها ، فلا مندوحة للغتها عن التطوّر بتطوّرها . في حين أنّ الفصحى تعاند ناموس التطوّر لأنّها لغة أقوام نزحوا عن هذه الأرض منذ مئات السنين فأصبحوا في مأمن من ضرورة مجاراة الزمان

ومقتضيات الأحوال .

لست بجاهل أن التبسّط في مثل هذا الحديث يحتاج إلى أكثر من مثل هذا المقال . ولكنّه باب لا بدّ من طَرقه ، إن لم يكن اليوم فغداً . ومن الخير لنا أن نطرقه اليوم ، وأن لا نؤجّل إلى الساعة الآتية ما نستطيع فعله الآن . ذلك إذا شئنا أن نماشي الزمان وأن تبقى لنا لغة حيّة بين اللغات الحيّة ، وأن يُقبل على لغتنا القريب والغريب ، وأن لا تعبث بأقداسها أوزار الماضي مهما تكن عزيزة على قلوبنا . فهي أوزار تفوح منها روائح الموت ، ولا بدّ من دفنها . فللأموات القبر ، وللأحياء الأرض والفضاء والسماء .

أوزار الاجتماع

قيل : « النظافة من الإيمان . » وهو قول حقّ ، إذا نحن لم نقصره على نظافة البدن واللّباس والمسكن . فالقلب والفكر واللّسان والذوق أحوج إلى النظافة من اليدين والرجلين ، والوجه والشعر ، ومن الرداء والحذاء ، والسرير والحصير . وليس أكره من ظاهر نظيف يستر باطناً قذراً .

إن تكن النظافة ضرباً من الإيمان والتعبد ، فالقذارة ضرب من الكفر والتهتك . وهي أكثر ما تأتينا من أشياء ليست قذرة في ذاتها ، ولكنّها تغدو قذارة إذا ما تغيّر حالها أو تبدّل وضعها في الزمان والمكان بالنسبة إلينا . فحفنة من الزبل في الحقل ليست قذارة . ولكنّها في ردهة الاستقبال قذارة وأيّ قذارة . وكسرة من الخبز على مائدتنا ليست بالشيء الذي تكره العين أن تنظر إليه أو اليد أن تلمسه . أمّا على الطنفسة ، أو في زاوية من زوايا البيت ، فإنّها تصبح قذارة نتخلّص منها بالمكنسة . وزنبقة بيضاء في شعر غادة حسناء لجمال تتمنّى الشفاه لو تلثمه والأنوف لو تشمّه . إلا أنّها في قصعة الحساء قباحة تنفر منها الشفاه والأنوف والعيون ،

وتتمنّى حتّى القصعة لو ترتاح من أثقالها . والماء نشربه ونستحمّ به لّبركة وأيّ بركة لأجسادنا . ولكنّه نفايات كريهة عندما يفرزه الجلد والكليتان .

كذلك هي حالنا مع عادأتنا وطقوسنا وتقاليدنا . فقد تغيّرت أوضاعنا في الزمان والمكان ، وتغيّر اتجاهنا ونبض حياتنا ، وتبدّلت أزياء معيشتنا ، ونبتت لنا حاجات ومشكلات ما عرفها أسلافنا . فبات الكثير من عاداتنا وطقوسنا وتقاليدنا أقذاراً في قلوبنا وأفكارنا ، وأوزاراً لأرواحنا وأجسادنا . وباتت هذه الأقذار والأوزار أصفاداً تعوقنا في السير إلى أهدافنا . وأهدافنا هي الانفكاك من القيود ، وإدراك كنه الوجود لنصبح أسياده بدلاً من أن نكون عبيده .

إن من يؤمن بهذه الأهداف ثمّ يتأمّل حركات الناس في مجتمعاتهم ، ويصغي إلى ما يهرفون به من كلام تفرضه اللياقة والمجاملة ليصعق لما انطوت عليه قلوبهم من رياء ، وأفكارهم من تدجيل ، وأرواحهم من ميوعة لا تليق برجل يعرف معنى الرجولة ولا بامرأة تعرف معنى الأنوثة . ولا تليق بالاثنين يسعيان معاً إلى المعرفة والحقّ والحريّة . والرياء قذارة ومثله التدجيل والميوعة . والقذارة وزر لا يطيقه حتّى الحيوان . فكيف بالإنسان ؟

إنّها لبادرة طيّبة أن تطرح السلام على إنسان مثلك تلاقيه

في الطريق ليعرف أنّك لا تنوي به شرّاً ، أو أن تصافحه ليطمئن إلى أن يدك لا تنطوي على مدية تغمدها في صدره . ولكن السلام تطرحه على أيّ إنسان من شفتيك لا من قلبك ، ويداً تمدّها لمصافحته تكلّفاً لا شوقاً ولا تطميناً ، لخسارة من وقتك ووقته ، وقذارة في روحه وروحك . فكيف بالسلام إذا تبطن عن بغض وعن خصام ؟

وإنّها لعاطفة نبيلة أن تعود مريضاً لعلّك تخفّف من أوجاعه . أو أن تؤاسي مُلتاعاً عساك تبرّد من لوعته . ولكنّك عندما تعود مريضاً أو تزور محزوناً لا بدافع من نفسك بل امتثالاً لعادة أو لتقليد ، فإنّك تحمل وزراً ثقيلاً وتحمّل المريض والمحزون وزراً أثقل .

وإنّه لمنتهى الشعور الإنساني أن تفرح لفرح جارك فتزيد في فرحه . ولكنّك عندما تذهب إليه بلسان يتصنع الفرح وقلب يتأكّله الحسد تسمّم قلبك وقلبه .

وإذا انتقلت من دنيا الاجتماع إلى دنيا السياسة والدين ، هالك ما يحمله الناس من أوزار تكاد تسحقهم سحقاً . فتعرقل خطاهم ، وتضيق عليهم أنفاسهم ، وتغشّي أبصارهم ، وتحجب عنهم أهدافهم . فلا هم يعرفون أين هم ، ولا هم يدركون إلى أين يسيرون . وكلّها أوزار ورثها الناس عن ماضيهم . وكانت من قبل عوناً لهم في سيرهم وفي نضالهم ،

فأصبحت اليوم عوناً عليهم . كمعطف من الفرو يرتديه رجل في سيبيريا فيقيه البرد ، ثمّ ينتقل الرجل إلى خط الاستواء ويبقى متمسّكاً بمعطفه . أو كجبل من الجليد في عرض اليمّ ، يعوم عليه جماعة تحطّمت سفينتهم . وإذ تدركهم باخرة النجاة يأبون الصعود إليها إلاّ إذا أصعدوا معهم جبل الجليد .

* * *

لقد انقسم الناس فيما مضى قبائل ثمّ صاروا شعوباً ثمّ دولاً ، ولكن روح القبيلة ما يزال يسيطر على مشاعرهم وأفكارهم . فدول اليوم تتزاحم وتتنافس وتتباغض وتتحارب كقبائل الأمس . ثمّ هي تقيم من حولها السياجات ، وتقسم باقي الدول إلى أصدقاء وأعداء كما كانت تفعل القبائل سواء بسواء . ولا فرق إلاّ في أن القبيلة كان يحكمها شيخ أو أمير في يده التشريع والقضاء والتنفيذ . في حين أن دولة اليوم تحكمها هيئات ثلاث : هيئة للتشريع ، وهيئة للقضاء ، وهيئة للتنفيذ . وهذه الهيئات يُنتخب بعضها انتخاباً ، وبعضها يُعيَّن تعييناً . وكلتا العمليتين — الانتخاب والتعيين — عمليّة معقّدة يلازمها الكثير من الدهاء والرياء والاحتيال والمحاباة .

ولماذا يتهافت الناس على الحكم ، فيحتدم الجدال والقتال ، وتنفق الأموال ، وتتعطّل الأشغال ، وتتطاحن المصالح ؟ أليس لأن الحكم يغري المتهافتين عليه بالجاه والسلطان ،

وبالعظمة والثروة ؟ وذلك ، لعمري ، هو الوزر الأكبر الذي ورثناه عن ماضينا ، وما نبرح نتمسّك به تمسُّك الكسيح بعكازه ، والماشي في الظلمة بسراجه . وكان علينا ، إذا نحن شئنا الانعتاق من ذلك الوزر ، أن نجرد الحكم عن كلّ مجد وجاه وأبّهة وعظمة وثروة ، فنجعله مشقّة بالغة بجعله خدمة خالصة لا يقدم عليها إلاّ الذين ترفّعت أنفسهم عن ترهات المجد والجاه ، وعن مغريات الثروة والعظمة . فتطوّعوا لخدمة الناس حبّاً بالناس ورغبة منهم في تسديد خطاهم إلى أهدافهم البعيدة . لا طمعاً بمجد يزول ، وثروة تنضب ، وسلطان هو في الواقع أحطّ أنواع الذلّ والهوان . . .

إنّ لنا في كلّ شريعة وزراً وقيداً ، سواء أكانت شريعة سماويّة أم أرضيّة ، ونحن نطلب الحريّة . أفلا تعجب مثلما أعجب لهذه المجالس النيابيّة في طول الأرض وعرضها يقيمها الناس ولا شغل لها من يوم ليوم ومن عام لعام إلاّ خلق شرائع جديدة ، حتّى بات من المستحيل تنفيذها والقضاء بمقتضاها ؟ أما تسمع الناس يتذمّرون في كلّ مكان من كثرة الشرائع ، وأساليب تنفيذها ، وتعقُّد القضاء بها ؟ أما كان من الأحرى بنا أن نقلّل الحاجة إلى القوانين بتقليل الأسباب التي تحمل الناس على انتهاك القوانين ؟ أما كان من الأجدى لنا أن نمنح جميع المجالس التشريعيّة إجازة عام

— بل أعوام — وأن ننفق ما نوفره إذ ذاك من وقت وجهد ومال على تعليم الجاهل ، وإطعام الجائع ، ورفع معنويّات البائس ، ورد الكرامة الإنسانيّة إلى المكدود والمحروم والمقهور لعلّهم لا يتذمّرون ، ولا يسرقون ، ولا يحسدون ، ولا يتمرّدون ، ولا يثورون ؟

إنّ أكثر ما يسنّه الناس للناس من شرائع باسم السلامة والعدل والحريّة ، لَقيود فوق قيود وأوزار فوق أوزار . والسلامة والعدل والحريّة منه براء . وهذه القيود والأوزار ليست غير إرث بغيض من ماضٍ ما كان يؤمن بالإنسان ومستقبل الإنسان ، بل كان يراه وحشاً ضارياً لا يروّض بغير العصا ، أو جواداً جموحاً لا يلين رأسه إلاّ باللّجام .

من قال إنّ السلامة والعدل والحريّة تصان بالقانون ، وإن المبادىء الشريفة تنهار وتغدو غير شريفة ما لم تقم على حراستها شريعة أو سجن أو بندقيّة ، من قال ذلك كان إمّا ضالاً أو مضلّلاً . فحتّى اليوم ما ردعت شريعة قاتلاً عن قتل ، أو زانياً عن زنى ، أو سارقاً عن سرقة ، أو كاذباً عن كذب ، أو كافراً عن كفر . والذين ارتدعوا عن بعض هذه الموبقات مخافة من سجن أو من مشنقة ، أو خسارة مال أو عقار ، فقد أذعنوا للشريعة بأجسادهم وعاندوها بقلوبهم وأفكارهم . أمّا الذين يرتدعون عن الموبقات وعن

أذيّة الغير لأن لهم من كرامتهم ومن إيمانهم بالله والناس رادعاً فأولئك هم الأبرار . وأولئك هم الأحرار .

* * *

أتراني أدعو إلى الفوضى ؟ معاذ الله ! وكيف تكون الفوضى في عالم كلّه نظام ؟ فلا السماء بما فيها ، ولا الأرض بما عليها تستطيعان أن تفلتا لحظة واحدة من النظام . فكيف بالإنسان ؟ ونحن لو فهمنا نظام الحياة ، وعملنا به طوع إرادتنا لكان سبيلنا إلى الحريّة . ولكنّني أقول إن كثرة القوانين البشريّة قد خلقت لنا مشاكل وأوزاراً نحن في غنى عنها . وقد صرفتنا عن تفهم النظام السرمديّ . وحسبك أن القوانين الأرضيّة — كالقوانين السماويّة — قد خلقت جماعات من الناس لا شغل لهم إلاّ درس تلك القوانين والوساطة بين الذين وُضعت من أجلهم والذين في أيديهم أمر تطبيقها . فكما أنّ رجال الدين جعلوا من أنفسهم وسطاء بين الناس والله ، لأنّهم وقفوا أنفسهم على درس الشرائع الإلهيّة وتفسيرها ، هكذا جعل المحامون من أنفسهم وسطاء بين المتقاضين والقضاء لأنّهم توفّروا على درس القوانين الأرضيّة دون غيرهم من الناس .

أجل . إنّه لمن الخير للناس المتطلّعين إلى أبعد من أنوفهم ، والتوّاقين إلى الانعتاق من الحدود والقيود ، أن يصفّوا

حساباتهم مع ماضيهم فلا يحملوا من أوزاره ما فات وقت نفعه ، وما يرهق أبدانهم وأرواحهم فيعرقل خطاهم في سيرهم نحو أهدافهم . وإن هم لم يفعلوا ذلك بإرادتهم ، وعن وعي وفهم ، فعلته لهم الحياة . ولكن بالعواصف والزلازل ، وبالحروب والثورات ، وبالكثير من الحزن والوجع . ومن بكى حيث يستطيع الغناء ، وتوجّع حيث في إمكانه أن يفرح ، فلا يلومنّ غير نفسه .

دودُ الجُبنُ

مرّ بي أمس أحد الجيران ، وما ان ألقى السلام حتى أردفه بالسؤال :

« هل من جديد في العالم ؟ »

قلت : « وأيّ جديد ، وأيّ عالم تعني ؟ »

قال : روسيا — أميركا — الدنيا . هل من جديد في الدنيا ؟

قلت : وما همّك من روسيا وأميركا والدنيا ما دمت في خير ؟ أما زرعت زرعك ؟ أما قطفت كرمك وعصرت دبسك ؟ أما قطعت مؤونتك من الحطب للشتاء ؟ أليست بقراتك وعيالك في صحّة حسنة ؟

فأجاب : نعم . نحن بألف خير ما دامت حكومتنا بخير .

قلت متعجّباً : وما شأن الحكومة في الأمر ؟ أم أنت تتهكّم ؟

فأجاب بحدّة : وكيف لا أتهكّم وقد خسرت دعواي التي ظلّت معلّقة في المحاكم عشرين سنة ؟ عشرون سنة يا سيّدي صرفتها وأنا من محامٍ إلى محامٍ ، ومن قاضٍ إلى قاضٍ ، ومن جلسة إلى جلسة . أمّا كم خسرت من وقتي

ومن مالي ومن دم قلبي فلا تسأل . والنتيجة حكم مبرم لخصمي !

قلت : سمعت بدعواك من زمان . وسمعت أن بعض المصلحين كانوا قد سووا الخلاف بينك وبين خصمك بطريقة ترضيك وترضيه . فلماذا لم تقبل بالتسوية ؟

ـ قبلت ثمّ رفضت .

ـ ولماذا رفضت ؟

ـ نكاية بخصمي . فقد كنت أريده أن يتعذّب أضعاف ما عذّبني .

ـ إذن أنت ما ذهبت إلى المحكمة لتحصيل حقّ بل للنكاية بخصمك وللتنكيل به . فما ذنب المحكمة إذا انقلبت نيّتك عليك ؟ أما سمعت أن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها ؟

ـ ما أنا بالمغفّل . ولا أنا ممّن ينامون على الأذى . وها أنا أحفر لخصمي حفرة ثانية ما أظنّه إلاّ واقعاً فيها وغير قائم منها

ـ أدعوى جديدة ؟

ـ نعم . لها أوّل وليس لها آخر .

ـ وأنت ذاهب بدعواك إلى المحاكم ؟

ـ وإلى أين أذهب ؟

ـ أما تخجل من أن تشغل المحاكم بدعاويك ولا قصد

لك منها إلاّ النكاية ؟ وكيف تلوم المحاكم إذا هي لم تنصفك وأنت لا تقصدها للإنصاف بل للتشفي ؟ ثمّ كيف تلومها لا تبت بدعواك في جلسة أو جلستين وأنت وأمثالك تغرقونها بدعاوى لا يصعب على أيّ رجلين عاقلين من جيرانكم أن يبصرا حقّها من باطلها ؟

– ولماذا المحاكم ؟

قلت متهكّماً : للنكاية والتشفي ثمّ للتسلية بنقد مفاسدها وكشف عوراتها !

فأجاب بلهجة المتفلسف : لقد طغى الفساد وتفشى في جميع دوائر الحكم فما يجدي فيه إرشاد ولا يصلحه نقد .

قلت : بل قد تصلحه أنت .

فقال مندهشاً : أنا ؟ ! ومن أنا لأصلح الحكم ؟

قلت : يكفيك أن تحجب فسادك عنه ليصطلح .

– وماذا تعني ؟

– أعني أنّك تريد حكامك للنكاية بجارك وللتشفي منه . ثمّ تعجب لجارك كيف يريدهم للنكاية بك وللتشفي منك . ولعلّك إذا أردت من حاكمك أن يحكم بالعدل لجارك أراده جارك كذلك أن يحكم بالعدل لك .

– قل ما شئت . أمّا أنا فأقول بأن الحكم عندنا فاسد والحكّام فاسدون .

– وأحرِ بك أن تزيد على ذلك أن المحكومين عندنا فاسدون .

ففكّر جاري طويلاً ، وحكّ رأسه ، ثمّ قال وهو يهمّ بالانصراف : خلّها على الله . كلّنا في الهوى سوا . والحقّ مع الذين قالوا من زمان :

« دود الجبن منه وفيه . »

* * *

انصرف جاري من عندي وما انصرفت كلماته من أذني : دود الجبن منه وفيه .

وإذن فهذه الغيوم الدُّكن تتلبّد اليوم في سماء لبنان ، وهذا القلق يساور أفكار الناس فيه فيقضُّ عليهم مضاجعهم ، وهذه التهم النكراء يتراشقها الحاكمون فيه والمحكومون – إذن هذه كلّها من صنيع الحاكمين والمحكومين بالسواء . فذلك الطين من هذه الحفرة . وهذا الدود من ذلك الجبن .

وإذن فأيّ مبرّر لهذا الضجيج والصخب تثيرهما الصحافة والأحزاب بغير انقطاع حول الحكم والحكّام لا غير حتى بات الناس لا حديث لهم إلاّ حديث الحكم والحكّام ، مثلما باتوا يعتقدون أن لا ضيق إلاّ من الحكّام ، ولا فرج إلاّ من الحكّام ؟ فكأنّهم لا يأكلون أو يشربون ، ولا يفرحون أو يحزنون ، ولا يولدون أو يموتون ، ولا يزوّجون

أو يتزوّجون ، ولا يتعاونون أو يتنابذون ، ولا يعرفون الحقّ أو لا يعرفون إلاّ بمنّة الحكم والحكّام . وكأنّما شمسهم لا تشرق أو تغرب ، وسماؤهم لا تضحك أو تعبس ، وأرضهم لا تخصب أو تجدب إلاّ بأمر من وزير في ديوان أو قاضٍ على قوس محكمة ، أو كأن حكمهم جاءهم من جزائر «واق الواق» وحكّامهم هبطوا عليهم من زُحَل !

كيف يستقيم الحكم لشعب اعوجّت مسالكه ؟

كيف يسلك الحكّام طريقاً سويّاً في الحكم ومن ورائهم شعب ما رفعهم إلى الحكم إلاّ ليكونوا أداة نكاية لبعضه ضدّ بعضه ، أو أداة منفعة لهذا الجانب منه دون ذلك ؟

كيف يعدل الحاكم في شعب يكره العدل ؟

كيف يتواضع الحاكم بين قوم رفعه ذلّهم إلى أكتافهم ؟ أما تراهم يزحفون كالجراد لتهنئة نائب بنيابة أو وزير بوزارة ؟ وهم يعلمون في أيّ مطبخ جهنّميّ طُهيت تلك النيابة وبأيّ الأحابيل الشيطانيّة اقتُنصت تلك الوزارة .

كيف لا يعتزّ الحاكم ، والذين حكّموه فيهم خلعوا عليه برفير العزّة ، ووشاح السعادة ، وتاج العظمة ؟

أم كيف يعفّ عن المال حاكم في شعب لا يرى سعادة أو كرامة ، وجلالاً أو جمالاً ، وسلطاناً أو حياة إلاّ في

المال وبالمال كيفما جاء ومهما تكن رائحته ؟

أم كيف لحكّام شعب تعفّنت ضمائره أن يكونوا أنقياء الضمائر ؟

لا . لست بناس أن في هذا الشعب أفراداً ضمائرهم نقيّة ، وأعينهم شبعى ، ونفوسهم عزيزة ، وحسّهم بالعدل وبالقيم الإنسانيّة الرفيعة صادق ومرهف . ولكنّهم ليسوا الشعب . ولا هم يَصلحون حكّاماً للشعب . بذا قضت « الديمقراطيّة » . فحكّام الشعب في شرع الديمقراطيّة يجب أن يكونوا منه وفيه . أي أن تكون أذواقه أذواقهم ، وميوله ميولهم ، وأخلاقه أخلاقهم ، وأهدافه أهدافهم ، وأن تكون مفاهيمه للعدل والحقّ وقيمة الإنسان مفاهيمهم بالتمام . فلا يحكمون على مجرم بأقلّ من الموت إذا كان الشعب يريد له الموت ، ولا يسالمون أمّة يأبَى الشعب إلاّ محاربتها ، ولا يعقدون صفقة تجاريّة مع بلاد يعدّها الشعب عدوّة لمصالحه . وإن هم فعلوا غير ما يريده الشعب كانوا غرباء عنه ، دخلاء عليه ، وحقّ للشعب أن يحاسبهم ، وأن يدينهم ، أو أن يخلعهم بالقوّة إذا اقتضى الأمر .

وخلعُ الحكّام بالقوّة يدعى ثورة . والثورة في نظر القانون إن أفلحت كانت قانوناً فوق القانون ، وكانت حَرية بالتبخير والتمجيد . وإن أخفقت كانت عصياناً وخروجاً على القانون .

وكانت لذلك جديرة بأقصى العقوبات وأفظع التنكيل . والغريب في أمر الثورات أنّها ما إن يستتبّ لها الأمر حتّى تشرع في التحريم . وأوّل ما تحرمه الثورة ! فكأنّها تخشى على ذاتها من ذاتها . وعلى سلاحها من أن يفلّه سلاحها .

أما قام الكثير من دول الأرض ، قديمها وحديثها ، بالثورة وعلى الثورة ؟ ولكن أيّ فتى يجرؤ في أيّ بلد أن ينادي بالثورة على حكّام ذلك البلد ؟ إنّها الخيانة العظمى والجريمة الكبرى . أما أن يبشر سكّان بلد بالثورة في بلد آخر وأن يعملوا بكلّ ما لديهم من وسائل مشروعة وغير مشروعة على تحقيقها فذلك هو الفضيلة ما فوقها فضيلة . فالثورات في نظر الحكّام كانت وما برحت بضاعة للتصدير لا للاستيراد .

إني أؤمن بالحجّة تقرع الحجّة . ولا أؤمن بالسيف يقرع السيف . وأؤمن بالثورة يشنّها النور على الظلمة فتطهر النفس من الذلّ ، والفكر من الخوف ، والقلب من الضغينة ، ولا أؤمن بها يشنّها الحقد على الحقد ليطهّر الأرض بالحديد والنار من فساد الحاكمين ما دام بالأرض غثيان من فساد المحكومين .

من دم المحكوم دم الحاكم . إن يكن دم الحاكم فاسداً فلأن دم المحكوم فاسد . وعندئذ كانت العناية بدم المحكوم

أولى وأجدى منها بدم الحاكم .

أتريدون لكم حكّاماً عمالقة ؟ إذن تفحّصوا أنفسكم أوّلاً وتيقّنوا من أنّكم لستم بأقزام .

أترغبون في أن يكون لكم حكّام يترفّعون عن الدنايا ، ويحكمون بالعدل ، ولا يمارون في الحقّ ؟ إذن طهّروا أنفسكم من الدنايا ، وتعلّموا العدل ، وارفعوا سلطان الحقّ فوق كلّ سلطان .

ألا ليت حبراً تريقه الصحف والأحزاب في لبنان تنديداً بفساد حاكم كان دماً طاهراً يسكبونه من قلوب طاهرة في قلوب إخوانهم المحكومين .

ألا ليت أدمغة يذيبونها في كشف عورة نائب أو وزير كانت مصلاً واقياً من تعفّن الضمير ينفثونه في شرايين إخوانهم المحكومين .

ألا ليت ضجّة يثيرونها حول صفقة مشبوهة من التبن أو الشعير عقدها ذلك المأمور أو هذا المدير كانت نفيراً في آذان إخوانهم المحكومين يدعوهم إلى الثورة على كلّ ما في نفوسهم من ذلّ وخنوع ونفاق ورياء وجبن وميوعة وانسحاق وضغينة ونميمة . لعلّهم إذ ذاك يظفرون بحكّام صالحين .

أما أن تصلحوا الحاكم قبل أن تصلحوا المحكوم ، وأن تصلحوا الاثنين بهزّة العَلَم وبالتبجّح الصبياني أنّ سيفكم

والقلم «ملء عين الزمن» فضربٌ من التخدير والتلهّي بمحاولة المستحيل .

وإن أنتم بدلتم حكّاماً بحكّام ووجوهاً بوجوه من غير أن تبدلوا أرواحاً بأرواح وقلوباً بقلوب كنتم كالهاربين من الدبّ إلى الجبّ وكانت خيبتكم ساحقة ، وخطيئتكم تجاه الشعب الذي منه تعيشون وباسمه تتكلّمون خطيئة لا تمحوها توبة ولا يدركها غفران .

الخيطُ الأبيَض وَالخيطُ الأسوَد

إن تكن العين سراج الجسد ، فسراج النفس الضمير .

بالعين يميّز الجسد اللّيل من النهار ، ويميّز الأشياء من حيث أشكالها وألوانها وأبعادها ، ثمّ يميّز ذاته من سائر الأشياء . وبالعين يستنير ليسلك سبيله في الأرض . كذلك بالضمير تميّز النفس ما بين الحلال والحرام ، والصلاح والطلاح ، والفضيلة والرذيلة ، وتميّز نفسها من سائر النفوس . وبالضمير تستنير لتسلك سبيلها في دنيا الخير والشرّ . والإنسان هو المخلوق الأوحد على الأرض الذي خصّته الحياة بنور الضمير علاوة على نور العين .

ومثلما يتفاوت الناس في صفاء البصر يتفاوتون في صفاء البصيرة . فالفرق بين الزبّاء والأعشى ، من حيث نقاوة البصر ، كالفرق ، من حيث نقاوة البصيرة ، بين من يحبّ قريبه محبّته لنفسه وبين من يقول : « من بعدي الطوفان . » ولا عجب في أن تختلف مقاييس الخير والشرّ عند الناس ، وأن تتفاوت درجات حسّهم بجمال الفضيلة وبشاعة الرذيلة ، باختلاف طبائعهم وأذواقهم ومداركهم ، وبتفاوت الدرجات

التي بلغوها في سلّم الرقيّ الفكري والروحي . وإنّما العجب كلّ العجب في التفاوت العظيم بين تقديرهم لأهميّة العين الخارجيّة بالنسبة إلى العين الباطنيّة . فهم يحرصون حرصاً بات مضرب المثل على حدقة العين التي بها يميّزون الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، في حين أنّهم لا يفتأون يذرّون الرماد والملح والبارود والكبريت في بؤبؤ العين التي بها يميّزون الصدق من الكذب ، والطهارة من الدعارة ، والمحبّة من البغضاء ، ولهم في ذلك فنون وفنون . وإليك بعض الأمثلة :

في أخبار التوراة أن نوحاً كان أوّل من غرس الكرمة وشرب من عصيرها فسكر . وقد بلغ به السكر حدّاً اختلّ معه ميزان عقله ، وأفلت زمام أعصابه من يده . فما بقي يدري ماذا يقول وماذا يفعل . وتعطّل ضميره فلا هو يميّز بين ما يليق برجل مثله وبين ما لا يليق ، ولا بين حقّ وباطل ، أو بين صالح وطالح . لقد أصبح – على حدّ قول القدامى – لا في العير ولا في النفير . فلا هو يُرجى لجلب خير ولا لدرء شرّ . لقد كان ينبض فكراً وإيماناً وحركة ، فإذا به مشلول الفكر والإيمان والحركة . تخاطبه فلا يسمع . وإن سمع فلا يفهم . فكأنّه ميت وليس بميت . لقد انطرح في خيمته وهو لا يعي من حاله شيئاً . وكان أن انكشفت سوءته ، فما تورّع أحد بنيه الثلاثة من النظر إليها . وبذلك جلب عليه

لعنة أبيه بُعيد أن أفاق الأخير من سكرته . وهي لعنة ما تزال تلاحق ذرّيته حتى اليوم .

قد يكون الإنصاف أن نتساهل مع نوح فنغفر له صنيعه الشائن ، وننتحل له عذراً من أنّه كان يجهل فعل الخمر إذا ما تناولها الشارب بكميات تذهب باللب . فما سبق له ، أو لأحد من قبله ، أن تذوّقها وعرف قدرتها العجيبة على العبث بجميع مقدرات الإنسان والرجوع به إلى حالة الحيوان ، بل إلى أحطّ من حالة الحيوان . أمّا الذين جاؤوا بعده فمن أين ننتحل لهم الأعذار ، وقد عرفوا ما هي الخمر وكيف أنّها تذهب بالبصر وبالبصيرة على السواء ؟

قد يكون أنّ نوحاً تاب عن معاقرة الخمرة من بعد أن خبر مفعولها . فليس في التوراة ما يشهد بعكس ذلك . أما ذرّيته فما قنعت بأن أخذت عنه سرّ الخمر ، بل راحت تفتنّ في صنعها حتى بات من المتعذّر اليوم إحصاء كلّ أصناف الخمور التي يصنعها ويشربها أهل الأرض . وما اكتفوا بالخمور يستعينون بها على قتل الإنسان فيهم بل انطلقوا يفتّشون عمّا هو أدهى من الخمر وأشدّ فتكاً . فاهتدوا إلى الحشيش والمورفين والكوكايين وغيرها من المخدّرات . فكأنّهم يتبارون في استنباط الوسائل التي من شأنها أن تعطّل ضمائرهم ، وتطفىء بصائرهم ، فتسلبهم قدرة التمييز بين

الخير والشرّ التي لولاها لما استحقّوا لقب « إنسان » .

إذا ما ذكرتُ المسكرات والمخدرات في طليعة المعطّلات للضمير فليس لأنّها الأهم ، بل لأنّها أبرزها إلى العين ، وأقربها إلى التناول . فهنالك معطّلات لا تأتي الإنسان من الخارج . فلا هي تُذاق ولا هي تُشمّ . ولكنّها تُطهى في صميم القلب البشريّ . ولا يندر أن تفوق جميع المسكرات والمخدرات تخريباً في العقل والضمير والإرادة . وللتدليل على واحدة منها أعود بك ثانية إلى التوراة ، إلى فجر الحياة البشريّة كما يصوّره كاتب سفر التكوين – إلى حكاية قابيل وهابيل ، ولدَيْ آدم وحوّاء .

لقد كان قابيل يحرث الأرض . وكان هابيل يربّي الغنم . وشاء الأخوان ذات يوم أن يقدّم كلّ منهما للربّ قرابين من نتاج عمله . وشاء الربّ أن يقبل تقدمة هابيل وأن يرفض تقدمة قابيل . فما كان من الأخير إلاّ أن انقضّ على أخيه وأرداه بطعنة . ولماذا ؟ لأن الحسد من الحظوة التي نالها أخوه عند الله أضرم في أحشائه ناراً هاصرة ، فعطّل عين ضميره ، وزيّن له أن النار التي كانت تتأكله لن يُطفىء أوارها إلاّ دم أخيه . فما كان يطيق لأخيه نعمة ليست له . وإذن فلا بدّ من محو تلك النعمة بمحو الحياة التي حلّت عليها .

إنّ ما فعله الحسد بوجدان قابيل كان أفظع بكثير ممّا

فعلته الحمرة بوجدان نوح . فنوح لم يرتكب جريمة إلاّ ضدّ نفسه . في حين أن قابيل اقترف جريمة ضدّ أخيه وجريمتين ضدّ نفسه . أمّا الأولى فجريمة القتل . وأمّا الثانية فجريمة الكذب . فقد كان منه عندما جاء الله يسأله عن أخيه ويطالبه بدمه أن أنكر فعلته وأجاب الله بوقاحة متناهية : « وهل أنا حارس لأخي ؟ » فاستحقّ بذلك لعنة الله . وما تدري أهو استحقّها بجريمة القتل أم بجريمة الكذب . فلعلّه ، لو أقرّ بذنبه واستغفر الله ، لغفر له الله ذنبه . ولكن الحسد العارم في قلبه كان قد عطّل عين وجدانه فما بقي يبصر وسيلة إلى الخلاص من شرّ وقع فيه إلاّ باقتحامه شرّاً آخر .

منذ فجر التاريخ والحسد يذرّ رماده وملحه وبهاره وكبريته في عيون الناس الباطنيّة ، وإذا بها لا تميّز الخيط الأبيض من الخيط الأسود في نسيج الخير والشرّ الذي هو نسيج الحياة البشريّة على الأرض . وكثيراً ما يصاب الحاسد بالعمى الروحي إلاّ إذا قيّض له من ينزع الحسد من قلبه ويبين له أن نعمةً يحسد جاره عليها قد لا تكون غير نقمة ؛ وأنّها إن تكن نعمة ، فزوالها عن جاره لن يعني انتقالها إليه ؛ وأن للنّعم الحقّة سبلاً تسلكها إلى قلوب المنعم عليهم . فمن شاء أن يتذوّق أيّة نعمة فعليه أن يعبّد لها الطريق في قلبه ، بدلاً من أن يخرّبه في قلب جاره .

ومتى ذكرت الحسد فاذكر البغض ، والحقد ، والنميمة ، والجشع ، والكبرياء ، والغرور ، وحبّ الظهور ، والغضب ، وجيشاً لجباً من مثيلاتها . ولعلّ الغضب أشدّها هولاً لأنّه أسرعها انفجاراً وأكثرها دماراً . والناس – إلاّ النادر النادر منهم – معرّضون لهزّاته العنيفة على درجات متفاوتة . فهناك من إذا تملّكته سَورة من الغضب هاج هياج البركان فأخذ يقذف بحممه في كلّ صوب ؛ يقذفها من قلبه ومن رئتيه ، ومن فمه ومن عينيه ، ومن كلّ قطرة دم ومنبت شعرة ؛ لا يبالي ماذا تطمر في سبيلها ، ومَن تشوي بلظاها . فكأن الذين أثاروا غضبه ديدان وجعلان . وكأنّه ربّ الزمان والمكان ، وصاحب السلطان الذي ما فوقه سلطان . له الأمر وله النهي ، وليس لأيّ من الناس أو الأشياء إلاّ الانصياع لما يأمر به وينهى عنه .

إنّها الأنانيّة الجامحة تعبث أحياناً برشد صاحبها ووجدانه إلى حدّ أن تعميه عن كلّ ما في الكون ما خلا السبب المباشر في إثارة سخطه وغضبه . فيمضي يشتم ويلعن ، ويحطّم ويهشّم ، ويهدّد ويتوعّد ، ويرغي ويزبد . ولا يندر أن ينتهي إلى القتل . أمّا ذلك السبب الذي أثار غضبه فقد يكون نسمة هواء هبّت على غير ما يشتهي ، وقد يكون طنّة ذبابة أو برغشة ، أو كلمة بريئة من فم طفل بريء ، أو خلافاً في

الذوق أو في الرأي بينه وبين فرد من أفراد عائلته وفي أمر قد لا يكون من الشأن أكثر من شراء مكنسة أو مسح حذاء . وإذ ذاك فالإنسان الغضبان والحيوان الغضبان سيّان . ألا نجّنا اللّهمّ من غضب الأنانية الرعناء والعمياء !

إنّ المشاعر التي تذهب باللّبّ وتفسد التوازن في الإنسان السويّ فلا يبقى في مستطاعه أن يميّز معها الخيط الأبيض من الخيط الأسود – خيط الخير من خيط الشرّ – لأكثر من أن يتّسع لتعدادها ووصفها مثل هذا المقال . فقد لا يخطر لك في بال أن في جملتها الفرح والحزن . فالفرح ، وعلى الأخص ما كان منه ناتجاً عن أمور زمنيّة عابرة ، إذا تمادى فيه صاحبه فعلَ بلبّه فعل الحميّا ، فأغمض فيه عين الضمير عن كلّ ما في الكون من وجع ، وشقاء ، وظلم ، وبشاعة . وكذلك الحزن إذا تمادى في القلب أعماه عن كلّ مباهج الحياة ومفاتنها ، وصرفه عن أهدافها التي تسمو إلى ما فوق الحزن والفرح . وأستثني من ذلك فرح المتعبّد إذا ما تجلّى له وجه الحقّ . وحزنه إذا ما انحجب عنه ذلك الوجه لهفوة أو هفوات بدت منه ، أو لقصور ما تمكّن بعدُ من التغلّب عليه . ذانك الفرح والحزن من شأنهما أن يزيدا عين الوجدان قوّة وصفاء في اجتلاء الحقّ ، فهما على عكس الفرح والحزن الدنيويّين اللّذين من شأنهما أن يعميا عين الوجدان عن

الحقّ وجماله .

جميل بنا أن نحرص على حدقة العين التي بها نميّز الخيط الأبيض من الخيط الأسود . وأجمل من ذلك بكثير أن نحرص على حدقة العين التي نميّز بها بين الخير والشرّ — بين الفضيلة والرذيلة — بين بياض الحقّ وسواد الباطل .

بين الأحياء والأموات صلات لا تختلف في شيء عن صلات الأحياء بالأحياء إلاّ من حيث أنّها لا تقوم مباشرة على الحواس الخارجيّة . فنحن لا ننفكّ نتخاطب مع الأموات، ولكن بأصوات لا تسمعها الأذن . ولا ننفكّ نبصرهم ، ولكن بغير العين المحصنة بالأجفان والأهداب . ذلك في حالة اليقظة . أمّا في المنام فما أكثر ما نجالس الأموات ونحادثهم ، ونؤاكلهم ونشاربهم ، فنسمعهم ونبصرهم كما لو كنّا وإيّاهم في دنيا واحدة وجوّ واحد .

ولا بدّ من يوم ينصرف فيه العلم إلى درس النوم وحالاته وما يطرأ فيه على النائم من رؤى وأحلام وإحساسات غريبة فيكشف عن قوانينها ومصادرها ومعانيها . فقد يكون لنا في درس تلك الأمور الغامضة خير أعمّ وأهمّ من كلّ ما جنيناه حتّى اليوم من دروسنا في الطبيعة . بل إنّه لمن العار علينا أن ندّعي المعرفة أو شبه المعرفة في شؤون الأرض والسماء ونحن ما نزال في حياتنا اليوميّة في ظلمات دامسات . أليست حياتنا بعضها غفلة وبعضها يقظة ؟ أليست الغفلة ثلث

العمر إن لم تكن نصفه ؟ فكيف بنا نهملها من دروسنا ، وهي نصف حياتنا ، فنمضي نعيش بنصفها الآخر ونحن نحسبنا نعيش حياة كاملة؟ ومن يدري فلعلّ في غفلة النوم مفاتيح أسرار اليقظة .

هذا تمهيد سريع لما سأرويه لك من حديث جرى بيني وبين جبران خليل جبران منذ أيّام في المنام . وما هي بالمرّة الأولى يزورني فيها جبران من بعد أن لفظ أنحابه أمام عينيّ وبين يديّ مساء العاشر من نيسان – أبريل – عام ١٩٣١ في مستشفى القديس فنسنت بنيويورك :

رأيتني سائراً وحدي في طريق جبلي ضيّق لا يخلو من المخاطر . وكما يحدث للحالم ، التفتّ وإذا بجانبي رجل ، وإذا بذلك الرجل جبران . فما دهشت ، ولا رأيت في الأمر ما يصحّ أن يدعى مفاجأة ، بل تقبّلته كما لو كان طبيعيّاً للغاية . إلاّ أنّني قلت في نفسي : « جبران مات . وها هو يُبعث حيّاً . ألعلّه ما مات حين حسبناه قد مات ؟ »

مشينا مسافة صامتين . وأخيراً عنّ لي أن أطرح سؤالاً على جبران . فقلت :

– ألعلّك آسف لموتك قبل الأوان يا جبران ؟

فأجاب بصوته الذي ألفته أذني من زمان :

– قبل الأوان ؟ ومتى سمعت يا ميشا[1] بشيء تمّ قبل أوانه ؟

[1] ميشا : اختصار لمخائيل ... وكان الكاتب يعرف به بين أصدقائه بأميركا .

لكلّ عمر غاية ونهاية ، فمتى انتهت الغاية انتهى العمر . حتّى الطفل الذي يموت في مهده لا يموت قبل أوانه . فقد تكون الغاية من عمره أن يحترق في المهد ويحرق قلبَيْ والدَيه .

— عنيت يا جبران أنّك ارتحلت عنّا وأنت ما تزال في أوج نضجك وإنتاجك . فلو أنّك عشت حتّى اليوم لحتتنا بكتب جديدة ورسوم جديدة .

— صحيح . فلو أنّني عشت حتّى اليوم لما ارتاح قلمي ولا ارتاحت ريشتي . أوَما سمعت ما تقوله العامّة : « العمر ينتهي والشغل لا ينتهي » ؟ وموتي يعني أن قلمي وريشتي كانا في حاجة إلى الراحة . فما أدري لو أنّني كتبت فوق ما كتبت ورسمت فوق ما رسمت إذا كنت آتي بأفضل ممّا كتبت ورسمت . ما أظنّ . فالشهرة عبء يا ميشا — عبء ثقيل ولذيذ . وهي إذ تشحذ الهمّة للعمل تحدّ من حريّة القريحة . وقد أخذت أشعر أن شهرتي باتت تعكّر عليّ صفاء عزلتي — تلك العزلة التي لا تزهر العبقريّة ولا تثمر إلاّ فيها . ثمّ إنّها باتت ترهقني وتستنزف الكثير من قوّتي ووقتي في مطالب لا طائل تحتها .

— أما تشتاق العودة إلينا يا جبران — إلى أخدانك في « الرابطة القلميّة » — إلى أيّامنا الحافلات بالجدّ والهزل ، بالهدم والبناء ، بالثورة على الجمود والتقليد وبالدعوة إلى

الانطلاق والتجديد ؟

— ولكنّكم معي دائماً أبداً يا ميشا . فالصداقات — والعداوات كذلك — تتمسّك بالروح تمسّك الجذور بالتّراب . فلا تنقطع أواصرها بانقطاع القلب عن النبض . والحاجز الذي بيني وبينكم شفاف إلى حد أن العين لا تبصره . وهل تبصر العين الهواء ؟ فكيف بما كان أرقّ من الهواء ؟ أنا معكم وأنتم معي . والرابطة القلميّة التي جمعتنا عقداً وبعض العقد من السنين ما تزال تجمعنا حتّى اليوم . نحن بذار واحد في تربة واحدة . فكيف نتفرّق ؟ ونحن بذار قديم في تربة قديمة . وما من جديد فينا إلاّ أنّنا نقينا البذار من السوس والزؤان ، والتربة من الأعشاب البريّة والأشواك . فقال الناس : هؤلاء قوم ثائرون .

كان يروقني ويدغدغ كبريائي أن أدعو عملي ثورة وأن يدعوني الناس ثائراً . أمّا اليوم فأصبحت أرى أنّ الثورة قوّة عمياء تجتاح الصالح والطالح معاً . وكثيراً ما تعرقل المجنّح إذ هي تحاول أن تجنّح الكسيح .

الجماهير يا ميشا بطيئة أبداً . بطيئة الحسّ والفهم والحركة . وهي حجارة رحى في أعناق قوّادها . ولكنّها حجارة تصبح قلائد من ذهب في أعناق الذين يعرفون قيمتها الإنسانيّة ويحسنون قيادتها . فبينا ترى العباقرة يتخاطبون ويتفاهمون

من أعالي القمم ترى الجماهير تدبّ في الأودية دبيب النمل وأبطأ . وليس في مستطاعها قطّ أن تسكر بخمرة الأعالي . لذلك لا تفعل بها الثورة أكثر من أن تسرع نبض الدم والشهوة في شرايينها . ولكن إلى حين . ولذلك تتلاشى حدّة الثورة حالما تبلغ الجماهير ، مثلما تتلاشى قوّة الصاعقة في التراب . ويكاد البعض يقنط من الإنسانيّة وخلاصها جاهلين أنّها سلّم رأسه في السماء وأسفله في الأرض ، وأن الناس يصعدونه فرادى لا جماعات .

أما ثرتُ على القساوسة والرهابين ، وعلى التقليد والمقلّدين ؟ وماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أن القساوسة والرهابين استأثروا برفاتي فخنقوا ثورتي . ثمّ أصبحت نهباً للمقلّدين . ما دام في الأرض جماهير دامت الجماهير مقابر للثورات والثائرين . وما دام في الأرض عباقرة دام فيها المقلّدون . تلك هي سنّة الحياة يا أخي . فلنثر ما راقنا أن نثور . ولنبدع ما طاب لنا الإبداع . ولكن حذار أن ننسى الجماهير والمقلّدين. بل حذار أن لا نبارك الجماهير والمقلّدين . فلولاهم لما كانت ثورة ولا كان إبداع .

قلت : إذن أنت غير راضٍ عن دفنك في مار سركيس ؟

فأجاب بعد تمهّل : بلى ولا . فمار سركيس خلوة ليس أجمل منها خلوة . وأنت تذكر كم كنت أمنّي نفسي وأمنيك

بها . ولكن الحياة – تباركت مشيئتها – شاءت لنا غير ما شئناه لنفسينا . وإنّه لشعور غريب يا ميشا وساذج إلى أقصى درجات السذاجة أن نتمنّى ونحن في الحياة لو يضمّ بقايانا تراب درجنا عليه وأحببناه . وأنت تعلم عظيم محبّي للبنان ، ولبلدتي بشرّي ، وبجبل الأرز ووادي قاديشا . من هذا القبيل ما أظنّني ، لو خُيّرت في الأمر ، كنت أختار مرقداً لعظامي أفضل من مار سركيس . إلاّ أنّني ما كنت أريد لتلك العظام أن تمسي سلاحاً ضدّي في أيدي رجال الدين . فهم بالتعازيم التي يقيمونها فوقها من حين إلى حين قد محوا كلّ ما قلته فيهم وأظهروني كاذباً تجاه نفسي وتجاه قرائي ، أو تائباً عن أقوال حسبوها عليّ إثماً . أمّا أنا فلست بنادم عليها .

– ورسومك يا جبران التي أوصيت بها إلى ماري هاسكل ثمّ تمنّيت عليها أن ترسلها إلى بشرّي ، أراضٍ أنت عن بقائها في بشرّي حيث يتعرّض الكثير منها للتّلف ، ويعرض الباقي عرضاً ما أظنّك ترضى عنه ؟ أما كان الأفضل لو تُنقل تلك الآثار الفنية إلى متحف في بيروت حيث تُعرض عرضاً لائقاً بها ، وحيث يشهدها المتعطّشون إلى الفنّ في لبنان وسائر البلاد العربيّة فضلاً عن الذين يؤمّون الشرق من أجانب ؟

– من دون شكّ . ومن غيرك يا ميشا لهذا الأمر ؟

– سرّني يا جبران أنّ الذين في أيديهم الحلّ والربط

اقتنعوا أخيراً بوجوب الاهتمام بآثارك الكتابيّة . وقد كلّفوني الإشراف على تنسيق كتبك العربيّة وترجمة كتبك الإنكليزيّة وإخراجها كلّها إخراجاً واحداً من حيث القطع والطباعة والورق . فقبلت المهمّة بالشكر . وقد باشر الناشرون العمل . وما إخالك إلاّ راضياً عنه . ولعلّنا نوفّق بعد حين إلى تنسيق رسومك توفيقنا إلى تنسيق مؤلّفاتك .

ـ أما تعتقد اعتقادي يا ميشا أن لآثارنا أعماراً مثلما لنا أعمار ؟ فالأثر الذي ما انتهت الحاجة إليه ما انتهى عمره بعد . وهو يسعى إلى الذين يحتاجون إليه مثلما يسعون هم إليه . فلا بدّ من تلاقٍ من الجانبين . ومن هذا القبيل كان اهتمامنا بما سيحدث لآثارنا من بعدنا ضرباً من البلاهة . فكم من أثر ينام أجيالاً ثمّ يستفيق ، وآخر يملأ الأرض دويّاً في حينه ثمّ يختفي إلى الأبد .

ـ حقّاً إنّ للزمان غربالاً أين منه غرابيل الناس . والويل للذين يطمحون إلى البقاء ولا يحسبون لغربال الزمان حساباً .

*

وكنّا قد بلغنا في سيرنا منعطفاً فيه أشجار وعين ماء . فاقترحت على جبران أن نستريح هنيهة وفي خاطري أن أتبادل وإيّاه الآراء في شؤون الساعة ، شؤون الشرق والغرب ، والحرب والسلم ، ومستقبل الفنّ والأدب . ولكنّني التفتّ وإذا بي وحدي . . . وفي سريري .

التشاؤم والمتشائمون

يكفي أن يكون في الأرض موت ليكون في الناس تشاؤم ومتشائمون . فما قيمة حياة تنتهي في حفرة ضيّقة مظلمة حيث الدود لا ينام ولا يشبع ؟

ولو أنّها كانت حياة طافحة بالملذّات لهان الأمر بعض الشيء ولخفّت الأسباب الداعية إلى التشاؤم . فقد يرضى أكثر الناس بسكرة من اللذّة الخالصة وإن هم كانوا على يقين من أنّهم سيغفون من بعدها غفوة لا استفاقة منها .

إلاّ أنّ الحياة من المهد إلى اللّحد طريق مفروش باللّذة والألم معاً . فشبع وجوع ، وصحة ومرض ، وراحة وتعب ، وبسمة ودمعة ، وأمل وخيبة ، وانتصار وانكسار ، ومتعة وحرمان ، ونور وظلمة ، إلى آخر ما هنالك من متناقضات غريبة وعجيبة تلازم كلّ خطوة نخطوها ، وكلّ لحظة نحياها على الأرض . والأنكى من كلّ ذلك أنّه ما من بشر استطاع حتى اليوم أن يأخذ من الحياة شهدها دون علقمها ، أو أن يبلغ حافة القبر غير نادم على شيء وغير راغب في شيء . فغصّة الشهوة المخنوقة ، وبصيص الرجاء التائه يرافقان كلّ

حيّ حتى آخر نسمة من حياته .

ناهيك بما في سلوك الناس بعضهم مع بعض ، ومع الكائنات حواليهم ، من التواء وخبث وقسوة وظلم ونفاق ودعارة . فحبّ يتحوّل بغضاً ، وصداقة تغدو عداوة ، وأمانة تمسي خيانة ؛ وَلَدٌ يعقّ والديه ، وحاكم يمتصّ دم محكومه ؛ غنيّ يشكو التخمة ، وفقير يبيت على الطوى ؛ خنزير بشريّ لا يلذّ له إلاّ التمرّغ في القواذير ، وذئب آدمي لا يطيب له شيء مثلما يطيب له دم الحملان الآدميّين ولحمهم .

ثمّ ناهيك بالطبيعة تعيش الحول تلو الحول على وتيرة واحدة . فنهار يتقلّص عن ليل ، وليل يتمخّض عن نهار . فصول تتسابق وتتعاقب ، وكواكب تتدافع وتتجاذب . شمس تشرق وتغرب من حيث أشرقت وغربت منذ آلاف السنين . وقمر يكتمل ثمّ ينقص ثمّ يتلاشى شهراً بعد شهر مثلما كان يفعل منذ آلاف السنين . وأرض لا تنفكّ تتقيّأ الأشياء لتعود فتبتلعها ثمّ تتقيّأها من جديد .

إنّها الحلقة مفرغة أوّلها ظلمة وآخرها ظلمة وقلبها تَعَبٌ ونصَب ووجع وخيبة لغير ما غاية أو جدوى إلاّ الفناء . لذلك كان من الخير للرجل العاقل أن لا يتعلّق بالحياة ، وأن ينبذها بحلوها ومرّها . فما هي غير سراب خدّاع ،

وغير جوهرة زائفة أو ثمرة شهيّة المنظر ، ولكن قلبها يتأكّله العفن ومذاقها لا يطاق .

تلك ، بالاختصار ، هي « فلسفة » التشاؤم . وهي ، كما ترى ، فلسفة قاتمة قانطة ، تبدأ في البقاء وتنتهي إلى الفناء. أمّا مداها فلا يتعدّى الفترة القائمة ما بين المهد واللّحد . وعذرها في قصر اهتمامها على تلك الفترة التي لا تكاد تكون غير رفة جفن في حساب الزمان هو أن الإنسان لا يملك من وسائل التفتيش عن معاني الحياة ما يخوّله معرفة ما كان قبل الولادة وما سيكون بعد الموت . أمّا كلّ ما يجري ما بين ذينك القطبين — بين الولادة والموت — فأمور نخبرها بأنفسنا خبرة مباشرة . ولنا ملء الحقّ في أن نصدر حكمنا عليها . في حين أنّنا لا نستطيع أن نخبر ما قبل الولادة وما بعد الموت . فكلّ حكم نبديه في ذلك أو هذاك حكم فاسد .

لقد كان على دعاة التشاؤم ، حالما بلغوا حدّ اليقين من صواب دعوتهم ، أن يكونوا دعاة انتحار إجماعي في الأرض ، وأن يبدأوا بأنفسهم . وإذا هم جبنوا عن الانتحار فقد كان الأولى بهم أن يكفّوا عن التنديد بمعايب الحياة والناس . فما همّهم من شرّ الحياة وخيرها ما دام مصيرها إلى الزوال ، وما دامت بغير معنى وبغير غاية ؟

إمّا أن تكون الحياة ذات معنى . وإذ ذاك فتشاؤم

المتشائمين ليس أكثر من شهادة عليهم بأنّهم قصّروا عن إدراك ذلك المعنى . وإمّا أن تكون الحياة بغير معنى . وإذ ذاك فلا معنى لأيّ شيء . وللتشاؤم على الأخص .

إمّا أن يكون للإنسان هدف من ولادته . وإذ ذاك فله هدف من موته كذلك . لأنّ الولادة تتصل بالموت اتّصال أوّل الطريق بآخره . وإمّا أن لا يكون له أيّ هدف من ولادته وموته . وإذ ذاك فأيّ حرج عليه إن هو عاش على الأرض ملاكاً أو شيطاناً ؟ وأيّة قيمة لتنديد المتشائمين بكثرة أوجاعه وشروره ؟

لقد حاول الدين منذ أقدم العصور أن يسدّ تلك الثغرة التي تنطلق منها عواصف الشكّ والتشاؤم . وأعني ثغرة الشرّ والإرادة الحرّة والموت . فجعل الإنسان وحده مصدر الشرّ في سائر الخليقة ، ثمّ جعله مسؤولاً عن شروره وغير مسؤول عن كلّ ما عداها ، ثمّ اجتاز به وهدة الموت بجعله الموت عبارة إلى قيامة عامّة لا يعرف زمانها إلاّ الله ، وإلى حياة أبديّة من بعد تلك القيامة قد تكون في الجنّة وقد تكون في جهنّم .

إلاّ أنّ وعود الدين ما أقنعت المتشائمين . ولا هي ردّتهم عن الكفر بالحياة . لقد كانوا — وما برحوا — يتّخذون من العقل سلاحاً للقضاء على العقل ، ومن الخيال أداة لتحطيم

الخيال ، ومن الإرادة قوّة لشلّ الإرادة . فهم بالحياة الّتي لولاها لما كان لهم عقل ولا خيال ولا إرادة ، يحاولون محو الحياة . فشأنهم في ذلك شأن العطشان المشرف على الهلاك يرتوي من بئر حتّى إذا استعاد الحياة والنشاط ارتدّ إلى البئر فردمها بالزبل والتّراب والحجارة .

إنّه لمن الغرابة بمكان أن يركن المتشائم إلى ما فيه من قوّة التحليل والتعليل والاستنتاج وأن لا يركن إلى الحياة الّتي منها تلك القوّة . والأغرب من ذلك أن يُصدر حكمه المبرم على الحياة وأن لا يسأل نفسه من أين جاءه السلطان لإصدار مثل ذلك الحكم . وهل في استطاعته ، إذا هو أصدر حكمه ، أن ينفّذه ؟ وإذا لم يكن في مستطاعه تنفيذ حكمه فما نفعه من إصداره ؟ أما كان من الأفضل له ومن الأشرف لو أنّه تردّد في إصدار حكمه عساه أن يهتدي إلى مخرج من المأزق الحرج الذي زجّ فيه بنفسه ؟

وأيّ مأزق أحرج من مأزق الرجل الذي يحكم بالفناء على كلّ ما في السماء والأرض وليس في مكنته أن يغيّر لون شعرة واحدة من الشعر الذي على رأسه وبدنه ؟ فكيف به يحاول أن يقضي على نسمة الحياة وقوّة الحركة في كلّ منظور وغير منظور من العوالم الشاسعة السابحة في رحاب الفضاء ؟

إنّه من المؤسف حقّاً أن يقوم في الناس رجال ونساء

دأبهم الانهزام من وجه الحياة ثمّ التغنّي بذلك الانهزام كما لو كان هو النصر بعينه . تلك لعمري هي حالة الضرير كُفَّ بصره عن المرئيات فاقتنع بأن وجودها وعدم وجودها سيّان . وحالة الأطرش سُدّت أذناه دون الأصوات فراح يعزّي نفسه بأن عالماً لا صوت فيه خير من عالم يعجّ بالأصوات . ولكننا ما عرفنا حتى اليوم أعمى واحداً استطاع أن يُقنع مبصراً واحداً بسَمْل عينيه . ولا أطرش تمكّن من أن يحمل رجلاً سليم الأذنين على تعطيل سمعه .

لقد كان على المتشائمين ، قبل أن يحكموا على الحياة بأنّها طائشة ورعناء وعمياء ، أن يتيقّنوا من أن الطيش والرعونة والعمى ليست صفات ملازمة لقصور في مداركهم بدلاً من أن تكون صفات ملازمة للحياة . لئن هالهم ما في حياة الناس من شرّ وعبوديّة وموت فما يجب أن يغرب عن بالهم أن شرّ الناس وخيرهم ، وعبوديتهم وحرّيتهم ، وحياتهم وموتهم ما عرقلت يوماً من الأيّام سير الحياة الشاملة في مجاريها الكونيّة . ولا هي قلّلت من قيمتها حتى في نظر الناس المبتلين بالشرّ وبالعبوديّة والموت . فشغفهم بها ، وتعلّقهم بأذيالها ، وتحمّلهم كلّ أوجاعها في سبيل ما تحمله إليهم من متعة جسديّة وروحيّة يفوق حدّ الوصف والتحليل والتصوّر .

إنّ في سلطان الحياة على الأحياء لمفتاحاً إلى سرّ الحياة . فلو أنّها كانت بغير مشيئة لما كانت لنا المشيئة . ولو أنّها كانت بغير إحساس لما كان لنا الإحساس . ولو أنّها كانت بغير إدراك لما كان لنا الإدراك . ذلك لأنّنا منها وفيها . وإذ ذاك فعملنا هو أن نعرف مشيئتها ، وأن نتحسّس إحساسها ، وأن ندرك إدراكها . ولو أنّها ما شاءت لنا أن نعرف شيئاً من ذلك لأقامت بيننا وبين المعرفة حواجز لا تخترقها بصائرنا وأبصارنا . ولما دفعتنا على التفتيش . ولما أودعتنا ذلك الشوق الذي يهزأ بالزمان والمكان ، ويقتحم معاقل الحزن والوجع ، ولا تحدُّ من قوّة انطلاقه أحابيل إبليس ولا جحافل عزرائيل .

ههنا سرّ الحياة . وههنا عظمة الإنسان الذي هو أسمى مظهر من مظاهر الحياة على الأرض . وهذا الإنسان ما تعلق بأذيال الحياة إلاّ ليبلغ في النهاية قلب الحياة . ولو لم يكن واثقاً من مقدرته على بلوغ قلب الحياة لاستسلم للموت من زمان . إلاّ أنّه ما استسلم ولن يستسلم للموت . ولا رضي ولن يرضى بالعبوديّة الأبديّة . وهو إن نام حيناً في أحضان الظلمة فلن ينام إلى الأبد . فليخرس النعّابون . وليرعوِ المتشائمون .

مجدُ القلم

إلى الأدباء النّاشئين

تأتيني من حين إلى حين رسائل من أدباء ناشئين يطلبون إليّ فيها أن أرشدهم إلى السبل الكفيلة بأن تجعل منهم كتّاباً وشعراء ذوي مكانة في دولة الأدب . ويا ليته كان في مستوصفي أو مستوصف سواي « روشتة » إذا استعملها الراغب في الأدب أصبح أديباً ، إذن لكنّا « نصنع » الأدباء بمثل السهولة التي بها نصنع الزبيب من العنب والخبز من القمح . إلاّ أن الأدباء يُخلقون ولا يُصنعون . والفرق بين الأديب المخلوق والأديب المصنوع كالفرق بين العين الطبيعيّة والعين من زجاج .

مَن كان مُعَدّاً للأدب كان في غنًى عمّن يدلّه على طريقه . ففي داخله ومن خارجه حوافز لا تتركه يستريح حتى يتمّ التزاوج ما بين عقله وقلبه وذوقه وبين القلم والمداد والقرطاس . وهو ، عن وعي وعن غير وعي ، لا ينفكّ يلتهم التهاماً كلّ ما يتّصل به من آثار أدبيّة . ثمّ لا ينفكّ يسوّد الأوراق بما يتولّد في نفسه من أحاسيس وأفكار

وانطباعات . إن أغمض عينيه في الليل فعلى كاتب أو مقال . وإن فتحهما في الصباح فعلى شاعر أو قصيدة . فكأنّ كلّ ما فيه وكلّ ما حواليه يدفع به دائماً أبداً إلى تحقيق حلمه بأن يدرك اليوم الذي فيه ينطبع اسمه على شفاهٍ كثيرة وتغدو مؤلّفاته نجعة لجيش من القرّاء والأقلام .

لكلّ ذي مهنة أو حرفة عُدّة . وعدّة الأديب لغة وفكر وخيال وذوق ووجدان وإرادة . وهذه كلّها قابلة للتنمية وللصقل . وخير الوسائل لتنميتها وصقلها هو احتكاكها المستمر بما سبقها وما عاصرها من نوعها . ثمّ توجيهها التوجيه المستقلّ في الطريق الذي تفرضه على الكاتب حياته الباطنيّة والخارجيّة . لذلك كان لا بدّ لكم من المطالعة ، ومن فكر سريع الالتقاط ، وخيال مسبل الجناح ، وذوق مرهف الحدّين ، ووجدان صادق الميزان ، وإرادة صلبة العود . وكان لا بدّ لكم ، فوق ذلك كلّه ، من معدةٍ أدبيّة تهضم ما تلتقطونه هنا وهناك فتحوّله غذاء طيّباً لكم وللّذين يقرأون ما تكتبون . وإلاّ كنتم كالإسفنجة إذا غمستموها في سائل من السوائل ثمّ عصرتموها ردّت إليكم ما امتصته عيناً بعين ودون زيادة أو نقصان . وكنتم إذ ذاك أصداء فارغة لا أصواتاً حيّة .

وإن تسألوني ماذا يحسن بكم أن تطالعوه أجبكم : إن

ذلك يتوقّف إلى حدّ بعيد على ميولكم وأذواقكم وعلى مقدار جوعكم إلى المعرفة التي بدونها لا قيام لأيّ أدب . فقد يكتفي الواحد منكم بمطالعة بعض الآثار الأدبيّة المشهورة . وقد يتعداها الآخر إلى النجوم والحيوان والنبات وطبقات الأرض والفنون والأديان والتاريخ والفلسفة بأنواعها ، حتى إلى الروايات البوليسيّة والمقالات التافهة التي تحفل بها حقول الصحافة الرخيصة . فالأمر الذي لا شكّ فيه هو أنّكم كلّما اتّسع اطّلاعكم على مجاري الحياة البشريّة ، قديمها وحديثها ، بعيدها وقريبها ، جليلها وحقيرها ، اتّسع مجالكم للتأمّل والتفكير وللعرض والتصوير . فما انسدّت في وجوهكم الطرق إلى مواضيع جديدة تعالجونها بأساليب جديدة .

تحاشوا اللفّ والدوران ، فليس أكره من جثّة فيلٍ أو حوتٍ تحيا بقلب ضبّ أو بقلب ضفدع . وتحاشوا النوح والبكاء ، والتشكّي من الدهر ، واستجداء رحمة القارىء وشفقته . فهذه كلّها من دلائل الهزيمة . والهزيمة عار وأيّ عار على الذين سلّحتهم الحياة بالفكر والحسّ والخيال والإرادة . ومن ثمّ فالناس يحبّون السير في ركاب الظافرين ويكرهون مماشاة المنهزمين .

أمّا العار الأكبر والأفظع فهو تقليدكم الأعمى للغير أو سرقة بضاعة الغير . فالتقليد هو الشهادة بإفلاس المقلّد .

وسارق أدب الأحياء والأموات كمن يأكل لحم أخيه نيئاً ، أو كمن ينهش جيفةً في قبر .

أمّا الشهرة فإيّاكم أن تبتغوها في ذاتها . فما هي غير ظلّ قامتكم الأدبيّة . إن امتدّت تلك القامة امتدّ . وإن تقلّصت تقلّص . فظلّ السروة السامقة غير ظلّ العلّيقة اللاصقة بالتراب . وأمّا الغرور فاقتلعوا جذوره من صدوركم . فهو أشدّ فتكاً بكم من السوس بالخشب .

والغرور هو غير الإيمان بالنفس . ذلك بالوعة وقاذورة . وهذا ميناء ومرساة . وما لم يكن لكم من إيمانكم بأنفسكم ميناء ومرساة كنتم حيرةً في حيرة وكان أدبكم رغوةً في رغوة .

قبل أن تهتمّوا بما يقوله الناس فيكم اهتمّوا بما يقوله وجدانكم لوجدانكم . أخلصوا لأنفسكم ولأدبكم أوّلاً وإذ ذاك فصدوركم لن تضيق بذمٍّ ولن تنتفخ بمدح . فإن كنتم أكبر من ناقديكم فما همّكم أذمّوكم أم مدحوكم ؟ وإن كنتم في مستواهم فيجمل بكم أن تصغوا إلى ما يقولونه فيكم . وإن كنتم دونهم فجدير بكم أن تتعلّموا منهم .

تنافسوا ولا تتحاسدوا . وإيّاكم أن تتشاتموا . فعداوة الكار إن هي اغتُفرت لإسكاف أو نجّار أو غيرهما من صانعي السلع وبائعيها فهي لا تُغتفر للعاملين على السموّ

بالإنسان في معارج الفهم والحريّة .

ما دمتم واثقين من أنّ لكم رسالة تؤدّونها فلا تقنطوا من تأديتها وإن أُغلقت في وجوهكم أبواب الصحف ودور النشر . ثابروا على العمل وأنا الكفيل بأنّكم ستشقّون لرسالتكم طريقاً في النهاية . فالناس في جوع وعطش دائمين إلى القول الحقّ والقول الجميل . ولا تنسوا أن الذين تبصرونهم اليوم في القمّة كانوا بالأمس في الأغوار وفي السفوح .

خذوا مواضيعكم من أنفسكم ومن الناس والأكوان حواليكم . ولا تمسحوا أقلامكم منها إلاّ من بعد أن تبدو لكم صريحة المعالم مشرعة الأبواب كي يسهل تناولها حتى على الذين هم دونكم مقدرة ومهارة في الغوص إلى الأعماق . وليكن أجركم الأوّل والأعظم تلك البهجة التي يشيعها في الروح شعوركم بأنّكم قد خلقتم مخلوقاً جديداً وجميلاً ، أكان ذلك المخلوق مقالاً أم قصيدة ، أم قصة ، أم رواية ، أم كلاماً لا ينساق إلى التبويب ولكنّه يترك فيكم وفي القارىء نشوة وعبرة .

الكتابة عمل مرهق كسائر الأعمال البنّاءة . إلاّ أنّه عمل لذّته لا تفوقها لذّة . وهي لذّة قلّما يتذوّقها الكسالى وفاترو الهمّة . فإن شئتم بلوغ القمم الأدبيّة حيث « الخالدون » فعليكم أن لا تشركوا في محبّتكم للقلم محبّة أيّ سلطان سواه ،

وأن تنبذوا الكثير من ملذّات العالم وأمجاده . وأنتم متى أدركتم أيّ مجدٍ هو مجد القلم هانت لديكم من أجله كلّ أمجاد الأرض ، وصنتم أقلامكم عن التملّق والتسفّل والتبذّل . فما سخرتموها لمال أو لسلطان ، ولا لأيّة منفعة عابرة مهما يكن نوعها . وما دامت أقلامكم عزيزة فأنتم أعزّاء .

في مهب الريح

في مهب الريح ٧
السيف والقصبة ٣٤
الخرافة الكبرى ٤٣
رحابة الصدر ٥١
سحر الطفولة ٥٧
الدين والمدرسة ٦٣
الشباب الحائر ٧٠
ستستريحون يوم أستريح ٧٨
هجم الربيع ٨٨
الأدب والدولة ٩٦
أم الحياة ١٠٥
غاندي — ضمير الشرق المستيقظ ١١١
أوزار الماضي ١١٨
أوزار اللغة ١٢٥
أوزار الاجتماع ١٣٣
دود الجبن ١٤١

الخيط الأبيض والخيط الأسود ١٥٠
حدثني جبران ١٥٨
التشاؤم والمتشائمون ١٦٥
مجد القلم ١٧٢

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
الأوثان
كرم على درب
لقاء
صوت العالم
كتاب مرداد
مذكرات الأرقش
ومضات (شذور وأمثال)
النور والديجور

في مهب الريح
دروب
النبي
أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون ١/٣
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
نجوى الغروب
من وحي المسيح
أحاديث مع الصحافة
رسائل

The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve Other Stories.

Copyright, 1989 by Mikhail Naimy

Eighth Edition

© Naufal Group sarl

Naufal Bldg; Manary St;
Tel: 354394, 354898; Tlx: Naualn 22210 LE
P.O.Box: 11-2161, Beirut, Lebanon

MIKHAIL NAIMY

A STRAW IN THE WIND

Essays

Naufal Group sarl
BEIRUT - LEBANON

في مهب الريح

إذا كان لكل أمة أن تزدهي بكتابها وشعرائها، وأن تباهي بعباقرتها وفلاسفتها ومفكريها، فقد حق لنا نحن أبناء الأمة العربية أن نضع ميخائيل نعيمه في رأس مفاخرنا الروحية والأدبية في هذا العصر.

إن ميخائيل نعيمه مدرسة إنسانية فريدة، ومذهب مضيء من أنبل مذاهب الفكر الإنساني العربي والعالمي.

"في مهب الريح" مجموعة جديدة من المقالات الشيقة والقصص الطريفة التي عودنا ميخائيل نعيمه على أن يطل بها من حين إلى حين على جمهرة قرائه والمعجبين بأدبه في كل الأقطار العربية. وفيها يتناول بأسلوبه الخاص، جوانب كثيرة من حياة الإنسان مع نفسه، وقريبه، وخالقه.